فصول في ترشيد التفكير الديني

مقدمتان :

1ـ الدين ـ أي دين ـ سلاح ذو حدين أو هو بلسم يحمل دسمه وسمه في رحمه معا. معنى ذلك هو أن المعول عليه في تحويل الدين إلى مصدر سعادة ـ والإنسان يبحث عن السعادة فطريا وليس بتكليف خارجي ـ أو إلى شقاوة هو الإنسان وليس الدين لأن الدين كائن جامد أو كتاب مسطور ولذلك أعلمنا سبحانه أن القرآن يكون شفاء لما في صدور المؤمنين ولكنه وهو القرآن نفسه لا يتغير منه شيء يكون خسارا لغيرهم. الإنسان بجهاز الإستقبال هو الذي يحدد كيفية إستقبال الدين ـ أو القرآن ـ ليكون له سعادة أو شقاء. لا ريب في أن قاتل الفاروق غيلة بإسم الدين ـ حتى لو كان محرفا ـ رجل كان الدين عليه شقاء وسما زعافا. ولا ريب في أن الشهيد ـ أحمد يسن مثلا ـ الذي عرض نفسه لإنتقام عدوه فقتل غيلة هو كذلك بدون سابق إنذار هو رجل كان الدين عليه سعادة. الدين من هذه الزاوية كالعلم في بعض التخصصات إذ أخفقت بعض الدول العظمى في تحويل العلوم الذرية وغيرها مما يثمر الأسلحة المحرمة دوليا إلى مصدر سعادة. العيب هو في المستخدم وليس عيب العلم. المغزى من ذلك هو أن المتدين يحمل نفسه مسؤولية فلا يغترن بتدينه ولا يزهين أن غيره على غير دين بل عليه أن يظل محترزا أن يكون تدينه عليه شقاء وعلى من حوله بالضرورة. وبذا يكون القرآن كما جاء في الحديث عليه حجة وليس له. (.. والقرآن حجة لك أو عليك).

2 ـ الدين هو أكبر مكون من مكونات الهوية ـ أي هوية وأي دين ـ مما يصنع الحياة والإنسان ويوجه السلوك. أكثر الناس من المسلمين ومن غيرهم لا يدركون هذا لأن ذلك التأثير لا يشعر به المرء من يوم لآخر ولكن يرصده المحلل ويعرفه اللبيب. يظن بعض المسلمين خطأ أن غيرهم لا يتأثر بالدين وهذا خطأ منهجي فكري شنيع. لا يعفى من التأثير الديني إمرئ حتى لو إدعى الإلحاد لأن الدين ليس إختيارا بشريا في الأصل بل هو نفخ إلهي حقن به الإنسان قبل خلقه أي في عالم الذر كما يقولون نسبة إلى آية الأعراف. معنى ذلك هو أن الإهتمام بالدين تدينا من لدن الإنسان مطلوب لأن سلوكه من حيث شعر أو لم يشعر سيكون متلونا بلون الدين الذي يحمله حتى لو برز ذلك من لاوعيه في ساعة غفلة منه.

الفصل الأول : التعليل يحتمل التبديل

معنى ذلك هو أن الحكم الشرعي العملي المعلل هو حكم يقبل التبديل والتغيير لأن القائد في الحكم هنا هي العلة وليس الحكم. العلة هي التي تقود الحكم حيث شاءت وليس الحكم هو الذي يقود علته. مركب الحكم المعلل هو مركب جسم حي. في الجسم الحي تقود الروح الجسم ويكون الجسم مقودا. العلة هي الروح والحكم هو الجسم. غني عن القول أن العلة هي الشيء (أو الأمر أو السبب أو غير ذلك من أسماء أخرى) الذي لأجله كان الحكم في أي إتجاه من إتجاهاته إباحة أو منعا أو إيجابا. علة الخمر مثلا الإسكار ولذلك عند تخلله يحل لأن علة الإسكار ذهبت. وغني عن القول كذلك أن أحكام الشريعة ـ أو الفقه تفصيلا ـ إما أن تكون تعبدية غير معقولة المعنى بالتعبير القديم أو معللة مقصدة. المساحة العقدية والتعبدية عادة ما تضم النوع الأول أي الأحكام التعبدية غير معقولة المعنى والعلة هنا هي إختبار الله لنا هل نطيعه بالغيب أم لا ولكنها ليست علة معتبرة لأنها تخرج عن دائرة الحكم العملي. عدد الركعات مثلا أو طريقة الطواف وغير ذلك. مساحة المعاملات هي عادة مساحة معللة مقصدة لأنها مفهومة معقولة يهتدي إليها حتى غير المسلمين من مثل الزواج المثلي أو لزوم الوحدة وضمان التنوع ورسم العدل وإعداد القوة وطلب العلم.

أمثلة حية :

خشية الإطالة والإسهاب أقصر الحديث على مثال واحد علمته اليوم من صفحات التواصل الإجتماعي إذ أفاد أحد الأصدقاء من تونس أن قاضيا قضى بالأمس في خلاف عائلي بالحضانة للأب بدلا عن الأم وبالنفقة عليها وليس عليه. لم أطلع على حيثيات الحكم وأفاد صديق آخر وهو مختص في القانون أن التعليل من القاضي كان جميلا وماتعا. ولكن الذي يهمني هنا هو أن هذا الحكم في ظاهره مخالف للشريعة التي قضت بالحضانة للأنثى بدءا من الأم فالخالة إلى آخره ولا تصير إلى الذكر إلا في حالات إستثنائية جدا وهو مخالف لها كذلك بسبب فرض النفقة على الأم وليس على الأب. كيف يكون هذا الحكم ظاهره مخالفا للشريعة وفي حقيقته موافقا لها؟ لأن المحكوم فيه هنا ينتمي إلى المعاملات وليس إلى العبادات أي إلى مساحة معقولة مفهومة. علة صيرورة الحضانة إلى الأم والخالة وغيرهما هي توفير محضن روحي دافئ للولد حتى يأخذ حظه من الحنان العاطفي وغير ذلك من القيم والمعاني التي تتوفر عند المرأة بأزيد من الرجل بمسافات كثيرة لا تقطع. فإذا إنتهى إجتهاد القاضي إلى أن هذه المرأة لعاهة بدنية أو روحية فيها لا يمكن لها أن تغدق على هذا الولد حاجته من الحنان العاطفي الذي يعده ليكون مثل ذلك في المجتمع فإنه يعدل عنها إلى أبيه سيما إذا كان الوضع هنا إستثنائيا كثيرا فلا خالة له أو غير ذلك من الحالات التي تطرأ على الناس. المعول عليه هنا في الحكم إذن هو صناعة الحنان العاطفي والعناية المادية وغير ذلك ولذلك أسندها الشارع إلى المرأة فطرة وجبلة ولكن في الحالات الخاصة لا يقيد القاضي بأصل لا محل له أي تخلف محله بتعبير الشيخ المدني كما فعل الفاروق عندما تخلفت محال كثيرة في حد السرقة والمؤلفة قلوبهم وغير ذلك.

والأمر نفسه بالنسبة إلى فرض النفقة على المرأة أي الزوجة وليس الزوج وهو مخالف ظاهرا للقرآن والسنة ولكنه حكم شرعي عملي معلل بقوله : بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ". فإذا عرضت على القاضي حالة تكون فيها المرأة هي القوامة على الأسرة ـ

وهذا جائز وجائز تثبيته في عقد النكاح أصلا في الحالات التي تحتمل ذلك دون تحكم ولا تعسف بل رعاية لمصلحة الأسرة والبنين ـ بما فضلها سبحانه على زوجها من قوة بدنية أو غير ذلك وبما أنفقت من مالها العائد إليها بسبب تلك القوة المادية أو المعرفية .. ففي هذه الحالة فإن القاضي ما عليه إلا أن يدور مع العلة وهي مواصلة الإنفاق من الذي كان ينفق قبل ذلك على العائلة بغض النظر عمن هو لأن المقصد هو عدم تعريض العائلة للضياع والجوع وسفلية اليد.

يخشى الناس ـ سيما حديثو التدين منهم ـ أن مثل هذا يجر إلى هدم الدين والعبث بمحكماته وهذا شعور جميل طيب يعكس حياة قلب ولكن عليهم أن يعلموا أن الشريعة قصر فخم مشيد عظيم فيها مئات الغرف والمرافق ولعظمتها وحتى تقوم بإسعاد أهلها لا بد لمهندسها أن يجهزها بمخارج طوارئ تضمن السلامة عند نشبان الحرائق. هذه الحالة العائلية آنفة الذكر هي حريق بالمعنى المجازي والأولى الذي نهجه القاضي هو تأمين أفراد العائلة لأن الإنسان غاية الشريعة بضرورياتها وكلياتها العظمى أما لزوم الباب العادي الطبيعي الرئيس في حالة الحريق فهو يقود إلى كارثة.

خلاصة :

ذلك هو معنى أن أي حكم شرعي عملي ـ لا عقدي ولا تعبدي ـ جاء معللا مقصدا مفهوم المعنى وعادة ما تكون مساحته المعاملات .. يكون أسير علته فهي الربان وهو التابع. عملا بأشهر قاعدة أصولية عظمى : الحكم يدور مع علته وجودا وعدما. لأن العلة هي المناط الذي يحقق للحكم أثره. هي روحه التي تهبه الحياة. أغلى نصيحة لكل طالب علم يجمع بين الحرص والتواضع للعلم وليس للعلماء هي النظر في كل حكم شرعي في مدى خضوعه للعلة والمصلحة بتعبير الشاطبي أم هو متعبد به. ذلك هو المفتاح الأول فإن دخل المرء الباب الرئيس الأول مغمض العينين لا يسأل عن طبيعة هذا الحكم هل هو معلل أو تعبدي فهو كمن عصبت عيناه ليفعل به المجرمون ما شاؤوا. ومن أبى ذلك كبرا ـ وليس سوى الكبر يصرف المرء عن العلم والفقه والحكمة قولا عدلا ـ فالله أسأل له الهداية

الفصل الثاني : معرفة مقام التشريع أم المشرع

خلاصة الفصل الأول :

إذا تعرضت إلى حكم شرعي عملي ـ لا عقدي ـ فسل نفسك أولا وقبل شيء : هل أن هذا الحكم يخضع لعلة أو مقصد أو مصلحة ـ بحسب إختلاف العلماء في التسمية والمسمى واحد ـ أو لا يخضع فإن كان يخضع فهو معلل مقصد فعليك البحث عن العلة لتكون هي الربان في العملية الصناعية الفقهية والحكم الشرعي العملي لها تابع لا متبوع وإن كان الحكم توقيفي تعبدي غير معقول المعنى فما عليك سوى الطاعة البصيرة وليس العمياء إذ العمى والإسلام عدوان لدودان. فإذا نفذت الحكم الشرعي طاعة بزعمك ثم آل إلى غير المآل الذي أريد له من الشريعة وواضعها فالذنب ذنبك وليس الذنب ذنب الشريعة ولا واضعها.

معنى المقام.

هناك نوعان من المقامات. مقام للتشريع نفسه ومقام للمشرع نفسه أو الشارع. مقام التشريع لن أخوض فيه الآن لأنه يخرج بنا قليلا عن دائرة الحديث ولأنه يتطلب حديثا أطول. مقام التشريع فصول كثيرة منها بصفة أساسية : التشريع للإيجاب أو للتحريم وهذا أقوى أنواع المقامات لأنه يترتب عليه ثواب أو عقاب وهو قليل في السنة والحديث بصفة خاصة وهو موجود في القرآن وليس بكثرة كثيرة. وهناك مقام الترغيب والترهيب وهو الأكثر حظا ووفرة في الحديث والسنة حتى إن أكثر من ثلاثة أرباع السنة كلها ـ بل أكثر ـ متمحضة لهذا الضرب من التشريع أي أنها تتحدث عن الترغيب وليس عن الإيجاب الذي تكفل به القرآن وعن الترهيب وليس عن الحرام الذي تكفل به القرآن الكريم وإذا عالجت السنة ذلك فهي سنة تأكيدية لا إنشائية ولا إستقلالية. وهناك مقام تشريعي ثالث عنوانه : إبتغاء الفضل عند اهل الفضل ومعناه أن بعض التشريعات الترغيبية طبعا لا الإيجابية تتجه إلى نوع من أهل الفضل ترتفعهم به وليسوا هم أعيانا بل أعمالا. وعندما أتحدث إن شاء الله عن مقامات التشريع لا عن مقامات المشرع أو الشارع أفصل ذلك بحوله سبحانه.

مقام الشارع أو المشرع.

لا مشاحة في المصطلح وهل نقول عن الله أنه شارع وعن نبيه عليه الصلاة والسلام أنه شارع أو مشرع .. لا أرب لي في هذا الآن. المقصود هو لسان المخاطب المتكلم بإسم الشريعة وهو الله في الأصل والجملة ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام بإختلافات ستعالج إن شاء الله تعالى في هذه الفصول في إبانها. هذا اللسان المخاطب بلسان أهل اللسان هو المقصود هنا وهو لسان المتكلم.

مقامات المشرع أو الشارع.

تكلم في هذا المبحث الأصولي كثيرون في السابق منهم الغزالي والجويني والعز والقرافي وإبن القيم وغيرهم كثير ثم جاء الشاطبي فتوسع قليلا ولما آل المآل إلى إبن عاشور كان أول مدون في التاريخ الإسلامي يفرد هذا المبحث ـ مقامات المشرع ـ بصفحات غير يسيرات في كتابه السفر الذي يعضد سفر الشاطبي : أي مقاصد الشريعة. المقصود بالمقامات هنا هي أن النبي محمدا عليه الصلاة والسلام وهو يتحدث أو يفعل أو يقر لا يقر على حال واحد من المقام فهو يصنع ذلك أحيانا تبليغا عن الله سبحانه وهذا هو الدين وأحيانا بصفته إماما للأمة في تلك الأيام أي إمامة إدارية أو سياسية ـ أي رئيسا بالتعبير المعاصر ـ وأحيانا بصفته قاضيا يعتمد البشرية في لحن الناس وحججهم ولذلك حذرهم أن يكون بعضهم ألحن من بعض فإذا قضى له بشيء من حق أخيه فهو يقضي له بقطعة من النار إن شاء أخذ وإن شاء ترك إلا أن يكون القضاء مصححا من الوحي في أثناء ذلك أو من بعده. وأحيانا يفعل ـ والقول فعل ـ بمقام البشرية كأكل الضب الذي يعافه وأحيانا بمقام الولاية

كمنعه عليا الجمع على فاطمة سيما من إبنة عدو الله أبي جهل . وأحيانا بمقام المستشار أو مقام الناصح أو مقام الوالد أو غير ذلك من المقامات التي أوصلها إبن عاشور في كتابه إلى زهاء خمسة عشر مقاما. والحقيقة أن هذا المبحث الأصولي ـ مقامات التشريع والمشرع معا ـ مازال فقها بكرا وحقلا بورا يحتاج إلى الرجال الذين يشمرون على ساعد العقل والبحث والحكمة والقلم ليستأنفوا هذا الأرث الذي ظل يتيما والحاجة إليه اليوم ماسة ماسة ماسة. فليست المقامات التي ذكرها الإمام إبن عاشور هي كل المقامات بل إن البحث فيها يستهدف تبويبها أولا وخاصة : إختراع المعايير العلمية التي على أساسها يفهم هذا الحديث قولا أو فعلا أو إقرارا أنه مندرج في مقام كذا وليس في مقام كذا. الغاية العظمى من هذا العلم هو التمييز ـ وليس التفريق ـ بين مقام البلاغ وبين المقامات الأخرى حتى لو وصل عدها إلى عشرين. إذ مقام البلاغ هو المقام الوحيد الملزم وما عداه إجتهادي قابل للتغيير.

أمثلة.

1 - الحديث الصحيح المشتهر اليوم بين الناس سيما المسلمون المقيمون في ديار الغرب وهو قوله عليه الصلاة والسلام : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين ظهراني المشركين تتراءى ناراهما. الحديث صحيح ولكن ينقص الناس مناسبة قوله وهي أن سرية من أصحابه إشتبكوا مع قبيلة خثعم أو مع بعض منها فلما إستحر فيهم القتل رفعوا المصاحف القرآنية وإعتصموا بالسجود في رسالة إلى أصحابه أنهم مسلمون وبعد إنتهاء الإشتباك طالبت القبيلة رئيس الدولة الإسلامية يومها محمدا عليه الصلاة والسلام بديات رجالها المقتولين وهم مسلمون فقال أنه بريء منهم أي براءة سياسية ومالية وليس براءة دينية وهو ينعي عليهم عدم هجرتهم إليه أي إلى دار الإسلام في تلك الأيام ولذلك قضى لهم بنصف الدية فحسب لأنهم مسلمون عصاة عصيانا سياسيا لهم حق الدم وليس لهم الحق كاملا بسبب ذلك العصيان. إقامتهم بين ظهراني المشركين لم يقرها ولم يكفرهم على ذلك ولكن نعى عليهم ذلك .أما قوله : تتراءى ناراهما فهو تعبير عن المسافة واليوم بطبيعة الحال لم يعد هذا صالحا مقياسا جغرافيا. قال عليه الصلاة والسلام هذا بمقام المسؤولية السياسية أو الحكم الإداري أو بلسان رئيس الدولة الذي لا يبدد أموال الخزينة في شيء باطل ولكن لما قتلوا خطأ ولم يكن بد ـ ربما لتمترس المشركين بهم أو لأي صورة حربية أخرى ـ من قتلهم لم يعاملوا أصحاب حق كامل لأنهم مسلمون عقيدة وإقامتهم هناك عصيان سياسي عملي وليس عصيانا عقديا ولأنهم قبل ذلك بطبيعة الأمر أناس لهم ما للناس وعليهم ما على الناس في الدماء والأعراض. الشاهد هنا هو أن من لم يتعرف إلى مناسبة النزول ولا إلى علم المقامات بالنسبة للمشرع ـ وهو في الحديث كثير بالعشرات والمئات ـ فإنه يقع في الخطإ الجسيم إذ يسحب هذا على زهاء خمسين مليون مسلم اليوم يقيمون ومنذ عقود طويلات في بلاد أصلها ليس أصلا إسلاميا وأغلبيتها مسيحية أو غير ذلك.

2 - الحديث المعروف بعنوان : دعهم يعملون إذن. القصة هي أنه قال عليه الصلاة والسلام بحضرة أبي هريرة أن مات على لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال له أبوهريرة إذن أبشر الناس فقال له إفعل وأخذ معه فردة من خفه علامة على أنه صادق فيما ينقل ولما كان يبشر الناس لقيه الفاروق فأخذ به إليه بقوة وربما بشيء من القسوة كعادة الفاروق عليه الرحمة والروضوان في الحق ولما جاءا إليه تبين له أنه فعلا أذن له بذلك فقال الفاروق : يا رسول الله الناس إذن يتكلوا فدعهم يعملون. فقال له عليه الصلاة والسلام : دعهم يعملون إذن. في الحديث عبر وخلاصات ودروس ألذ من العسل المصفى وأغلى من الذهب الخالص. لا يتسع لها المجال ولكن الشاهد هنا هو أنه عليه السلام تصرف بادئ الأمر بمقام الداعية المبشر الناصح الرؤوف بالناس الرحيم بالأمة ولو كان ذلك غير كذلك لما تراجع عن مقام البلاغ النبوي لرأي الفاروق. فلما تبين له من أحد أبرز نجباء التلاميذ بل هو أنجبهم قطعا أن الأولى أن يدعهم يعملون فاء إلى رأي صاحبه. نحن اليوم وقد أنعم الله علينا بالموقفين معا نعبد الله بهما معا فنعمل غير متواكلين قدر الإمكان ولكن نعتقد في التقرير الأول أن من مات مؤمنا إيمانا حقيقيا لا شائبة للشرك فيه دخل الجنة حتى لو تأخر دخوله أو لقي من العذاب المطهر قبل ذلك ما لاقي على كبائر لم يتب منها. هكذا يفيد الداعية والعالم والفقيه والمفتي من هذا التردد بين موقفين في الحديث عندما يتبين له أمر ملابساته وهو يعالج الناس.

تلخيص للحلقة الثانية :

لا بد من معرفة مقام التشريع أو المشرع لحسن فقه الأمر أو النهي الوارد إذ أن للتشريع مقامات منها للإيجاب تختلف عن مقامات ادنى أي مقامات الترغيب أو الترهيب وللشارع مثله مقامات منها مقام التبليغ وهو المقام الأول له عليه الصلاة والسلام ومقاماته الأخرى التي فصل فيها إبن عاشور ومازالت تحتاج إلى عمل كبير هي مقامات لا تشريعية ولذلك سميت السنة تشريعية وغير تشريعية ويكون الخلط بين المقامات مدعاة إلى تنزيل سيء يحرم الناس من تفيئ ظلال مقاصدها ومكارمها ومحاسنها ومحامدها.

كلمة قصيرة مركزة عن فعل التفكير :

ربما كان مكان هذه الكلمة في الحلقة الأولى ولكن تداركا أقول أن التفكير صناعة حيوانية حياة نفسية أو روحية أي أن التفكير يشترك فيه العجماوات البكماوات وهي الكائنات الحية حياة نفسية لا روحية مع الإنسان وهو الكائن ـ إلى جانب الجن الذي هو أقل منه قدرا ـ الحي حياة روحية ونفسية معا. كلاهما يفكر تفكيرا غريزيا جبليا فطريا سوى أن الإنسان لأنه مكرم بالعقل يفكر تفكيرا غريزيا جبليا ثم تفكيرا عقليا لا ماديا أي أنه قادر بعقله ـ منحة ربه إليه ـ على التفكير المركب الذي يرتب المقدمات مع نتائجها سببا وسنة وهو ما سمي قديما بالتعبير الأجنبي : ميتافيزيك أي فوق قوانين الفيزياء أو فوق المادة. التفكير المقصود هنا هو الضرب الثاني أي التفكير المعنوي لا المادي بسبب أن الدين صناعة معنوية لا مادية وهو يخضع للتأويل العقلي لا الإلهامي ولا الحسي ولا التاريخي.

الفصل الثالث : فقه المآل ـ أو فقه المحل ـ أو فقه الواقع

أسماء كثيرة غابرة وحاضرة والمسمى واحد ولا مشاحة في المصطلح كما قال المناطقة.

ما هو فقه المآل؟

فقه المآل ـ أو المحل أو الواقع ـ هو أن يتريث المرء عند تعرضه لأمر أو نهي من الشارع صحيحا صريحا إذ لا حديث عن الظنيات هنا وروردا أو دلالة لأجل إيقاع ذلك الأمر أو النهي بشرطين : أولهما مصاحبا لمقصده المراد منه لأن الأمور بمقاصدها وليس بمبانيها وثانيهما

هو معرفة المحل الصحيح المناسب لذلك الأمر أو النهي. المحل هو الموضع أو الموقع الذي تطبق عليه الشريعة. هو فقه المآل لأنه يؤول ـ أي يرجع ويعود ويفيئ ـ إلى محله المناسب أي إلى الشخص ماديا أو إعتباريا. ذلك أن الفقه صناعة معنوية تتركب من خطوات ثلاث : خطوة التخريج أي معرفة الأمر أو النهي معرفة حقيقية فلا يكون موهوما ثم خطوة التشذيب أو التهذيب أي معرفة علته ومقصده وسببه وغير ذلك مما يخلصه من أشياء أخرى تشبهه أو تعمي عليه ثم خطوة أخيرة هي خطوة التنفيذ أو التطبيق أو التنزيل أي خطوة العمل والفعل وهي خطوة تعنى بمعرفة المحل أو المآل أو الموضع أو الموقع الذي ينفذ عليه الأمر أو النهي. فإذا تمت هذه العلميات الثلاث بصحة كان المرء مطيعا لربه على بصيرة وكان من الذين يتبعون المهاجرين والأنصار بإحسان وإن تسرع أو تعجل فلم يوف أي خطوة حقها فهو آثم قطعا حتى لو خلصت نيته خلوصا تاما. الأمر شبيه جدا بالقانون الوضعي فالقاضي هو المشذب المهذب وواضع القانون هو الشارع الآمر أو الناهي والشرطي أو السجان هو المحقق. الفقه صناعة بأتم معنى كلمة الصناعة وليس عبثا يلجه كل من هب ودب.
يستنكف بعضنا اليوم كثيرا عن تسمية هذه العملية فقه واقع ولا عبرة بالإسم إذا تواضعنا على المسمى إذ لا يحرص على الإسم إلا غبي أحمق. سوى أن الحديث إلى الناس بلسانهم أمر قرآني قح.

أمثلة على ضرورة العلم بفقه المآل أو المحل أو الواقع :

1 - لما قال سبحانه : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم. فإنه يقصد أن المشكلة ليست في سبهم ـ السب لغة ليس هو ما نفهمه اليوم أو نصنعه مثله مثل الكذب لأن السب هو التعيير بلساننا المعاصر ودليل ذلك أنه كان يسب آلهة المشركين ويعيبها وسبه إياها قوله أنها لا تنفع ولا تضر ـ وإنما المشكلة هي أن المسبوب قد تأخذه الحمية ـ في الغالب والعبرة بالغالب شرعا ـ ليسب إله الساب وهو الله سبحانه. نهانا عن السب إذن لأن مآله ـ أي محله وواقعه ونتيجته ـ سيء. راعى في هذا النهي المآل والواقع.

2 ـ لما أخبرنا سبحانه في سورة الكهف عن قصة السفينة التي خرقها العبد الصالح فثار موسى عليه السلام أعلمنا أن نهي موسى عن خرق السفينة وهو عمل سيء دون ريب جاء لعدم علمه بالنتيجة وهي تأمينها من غصب الملك ولو علم موسى ذلك مسبقا لما نهى صاحبه ولما أوضح له صاحبه الأمر حصل له ما خرج لأجله وهو طلب العلم. ومثله ما وقع في السورة نفسها ومن الرجل نفسه أي إقام الجدار رغم أن أهله لم يقوموا بواجب الضيافة لهما وهما جائعين. لو أطاع موسى في عدم إقامه لذهب مال الغلامين. ما قص الله علينا هذا وغيره كثير في القرآن سوى ليعلمنا دينا قوامه رعاية المآل والمحل والواقع والنتيجة من كل عمل يعمله الإنسان. فلو أخلد إلى نيته الصالحة فحسب ولم يحكم عقله في المآلات والنتائج حتى لو كانت الأعمال سيئة كحالة خرق السفينة مثلا لما حصل مراد الشارع وهو رعاية حقوق المستضعفين حتى لو أدى ذلك إلى هضم بعض حقوقهم لبعض الوقت. الدنيا موازانات ومقاربات وتوافقات وأفضليات وأرجحيات ولا تستقيم لأحد ولو لنبي على نمط واحد.

3 - لما أخبر عليه الصلاة والسلام عائشة أنه يريد أعادة بناء الكعبة ليضم إليها ما جرفته السيول قبل بعثته بل قبل ميلاده حجر إسماعيل علل عدم إقدامه على ذلك بأن قومها أي قريشا حديثو عهد بجاهلية. هل يقول عاقل أن هذا الحديث أمنية منه أو رأيا وليس هو حديث موحى إليه؟ إنما أمره ربه سبحانه بإعادة بناء الكعبة على أصلها الأول ولكنه أحجم عن ذلك لأنه راعى الشاهد الدولي أو المحلي أو الخارجي بتعبيرنا المعاصر أي رد فعل محتمل من قريش القبيلة القوية العظمى التي هو معها في خصومة عقدية حادة جدا فلا يزيد عليها وعلى العرب كلها التي تؤم البيت مرة كل سنة في مهرجان حج معظم بأن يشتبك معهم في معركة جانبية حول توسيع بيت أو تشييده. أجل. أمره ربه بذلك ولكن الواقع لا يلبي ذلك ولا يعني ذلك أن الله سبحانه لا يعلم ذلك ولكن يعني أن يعلمنا نحن قبله هو ـ لأنه هو معلم منه مباشرة سبحانه ـ أن رعاية الواقع ومآل الفعل وعاقبة العمل ونتيجة الصناعة وثمرة الإمتثال أو الإنتهاء دين مدين لا ينفك عن الأمر نفسه ولا عن النهي نفسه.

4 ـ لما طلب منه بعضم قتل المنافقين وخاصة أميرهم إبن أبي سلول وسيما بعد إثارة الإفك ضده هو مباشرة ليخر سقف دينه عليه وعلى رؤوس الناس أجمعين .. أبى وقال : أخشى أن يقول الناس : محمد يقتل أصحابه. هل هو صاحبه؟ هو صاحبه مدنية وليس دينا أي سياسة وإدارة لأنه مواطن بالمدينة تام الحقوق والواجبات وليس دينا وعقيدة. ولكن الناس خارج المدينة في الفرس والروم لا يعرفون هذا. حتى من يعرف منهم هذا سيقول في حملة إعلامية ضارية : محمد يقتل أصحابه ولهذا أثر كبير سيء على من تحدثه نفسه بدراسة الإسلام. الثمرة المرجوة من قتل المنافق إذن هي تراجع الناس بسبب حملات إعلامية ظالمة عن مجرد دراسة الدين أو التفكير فيه. هذه ثمرة سيئة لا يريدها نبي يبحث لدينه عن الإنتشار وليس عن الإنحسار. لذلك علمنا أن ما كان واجبا ـ وهل أوجب من قتل رجل حاول مرارا وتكرارا هدم الإسلام وكان آخر شيء قام به هو محاولة هدم البيت النبوي هدما معنويا ـ يمكن ـ بل يجب ـ تأخيره أو تأجيله لأن البيئة الراهنة لا تقبله. أجل. قبول الناس لك مطلوب ومهم لأنك تتحرك مع الناس وبهم وهم وسيلتك وهم غايتك. علمنا رعاية المآل والمحل والواقع.

5 ـ لما إشتكى إليه بعض أصحابه أنهم يلاقون الأذى فأضطروا إلى قول كلمة الكفر قال لهم : إن عادوا فعودوا . أي إن عادوا إلى تعذيبكم فعودوا إلى قول كلمة الكفر وصدق القرآن الكريم ذلك بشرط إطمئنان القلب بالإيمان. أي علمنا أنه إذا كان مآل الصبر والتدين هو القتل ـ إلا في حالة الجهاد وخاصة دفعا ـ فإنه يباح الترخص حتى بقول كلمة الكفر لأن المآل هنا مخيف وهو قتل إنسان وهنا ـ هنا ـ تقدم النفس ويؤخر الدين. علمنا أن رعاية حالة الناس وصبرهم وواقعهم دين مدين وشرط مشروط فلا يضحى بالإنسان ـ هنا وليس في الجهاد طلبا ـ لأجل الدين. مآل التعذيب محتمل أما مآل القتل ـ هنا ـ فلا.

6 ـ لن أعقد هنا كلاما ثمينا جدا لفهم الصحابة لهذه القاعدة أي رعاية المآل ـ المحل او الواقع ـ وخاصة عمر وعثمان وعلي حيث ضربوا أمثلة رائعة جدا في تأخير الأمر والنهي الصحيحين الصريحين بسبب تخلف المآل كما قال الشيخ المدني عليه الرحمة. أي بسبب تخلف الحلقة الثالثة من الصناعة الفقهية بعد حلقتي : التخريج والتشذيب. أحصيت بنفسي أزيد من خمسة عشر مثالا علق فيها الفاروق الأمر أو النهي بسبب تخلف المحل أي بسبب مآل لا يتحقق منه المقصد منها على سبيل الذكر لا الحصر : المؤلفة قلوبهم وحد السرقة وأرض السواد وإسم الجزية وصلاة التراويح وضوال الإبل في عهد عثمان وتضمين الصناع في عهد علي وأمثلة أخرى تربو عن الثلاثين. كما لن أتحدث عن إجتهادات أخرى تراعي المآل قام عليها إبن تيمية مثلا في القصة المعروفة بعدم نهيه الناس عن شرب الخمر لأنهم لو أفاقوا لأعملوا سيوفهم في دماء الناس فيكون إذن شرب الخمر أدنى ضرا ويكون مآل نهيه إياهم قتلا للناس الأبرياء.

أختم بثلاثة أمثلة معاصرة :

1 - إستقلال بعض القوميات أو ما في حكمها اليوم عن الدولة المركزية كما هو حال محاولة الأكراد هذه الأيام وما جرى قبل سنوات في جنوب السودان وغير ذلك. الذين ينظرون إلى مسألة الإستقلال من زاوية الحرية فحسب قوم عمش. لم؟ لأن النظر بعين واحدة لا يكفي. صحيح هي حرية ولكن من جانبه الآخر هي تقسيم للمقسم بالتعبير الإعلامي المعاصر أي مواصلة إجهاز على ما بقي موحدا من أقطار متداعية. هل ينكر عاقل أن الخصم العدو المتربص هو من يرتب أسباب الإستقلال لتكون تلك المستقلات مرتعا خصبا له يقايض إستقلال سيادتها بالمال؟ مآل الإستقلال اليوم إذن هو مآل سيء حتى لو تسربل بالحرية بل حتى لو تعرضت تلك الأقليات القومية ـ الأكراد مثلا ـ لضرب من ضروب القهر لأن القهر القادم أشق عليها. ليس هناك من عمل إسلامي اليوم أفرح عند الله وأذخر وأعظم في تصوري من العمل على إعادة توحيد عرى هذه الأمة بكل الوسائل الممكنة لأنه تبين لنا أن العدو لا يتسلل بيسر وسهولة عدا من ثغرة تفرقنا.

2 - تطبيق الشريعة اليوم بمثل ما ينادي به الشباب. هل عندنا جهاز تنفيذي قوي يطبق الشريعة؟ ما هي الشريعة التي ستطبق لو لبت الدولة العربية اليوم هذا المطلب؟ أليست هي الحدود فحسب؟ أليست تطبق الحدود على الفقراء دون الأغنياء والضعفاء دون الأقوياء والمحكومين دون الحاكمين؟ مآل هذه الدعوة إذن لا تفهم بنية أصحابها الطيبين بل بما قد يوظفها أعداؤها أنفسهم. مآل هذه الدعوة إذن لن تفضي إلى مراد الله أي مزيدا من العدل والرحمة والحرية والكرامة والوحدة وحق التنوع والعلم والمعرفة والقوة والمساواة. هي ستفضي إلى ضدها. مآل هذه الدعوة إذن اليوم في هذه المناخات السائدة هي مآلات سيئة يربو بنفسه عنها العاقل حتى لو كان صاحب أطيب طوية.

3 - الجهاد الذي تتوق إليه اليوم أفئدة الشباب. هل عندنا جهاز حكومي قوي نجاهد معه أو من خلفه؟ جهاد من؟ جهاد الصهاينة أو الصليبين أو المحتلين أوجهاد الحكام الباطشين أو الشيوعيين ؟ جهاد من؟ الجهاد يعني إعداد القوة والقيادة والمال وبعد ذلك كله تقدير سياسي صحيح مآله أن النجاح سيكون حليفنا فإذا لم يتحقق ذلك فمعناه بطلان الجهاد لأن تغيير المنكر إذا أفضى إلى منكر مثله أو أكثر منه فهو عبث معبوث. عندما قال الأولون أنه لاجهاد إلا من خلف أمير كنا ونحن صغار ـ مثل هؤلاء الصغار اليوم ـ نسخر منهم ولما كبرنا علمنا بالتجربة أن كلامهم نابع عن تجربة وعلم وليس محل سخرية. الجهاد لا بد له من دولة قوية واحدة متماسكة ذات أسلحة وجيوش ومعارف وعلوم وذات تفكير سياسي يخبرها بقوتها وقوة أعدائها فإذا تخلف أي شرط من ذلك آل مآل الجهاد منا سواء دولا أو مجموعات إلى عبث بل إلى أيلولة عنوانها : الأختراق الأمني أو القتل الجماعي.

خلاصة هذا الفصل :

كلما تعرضت لأمر أو نهي صحيح صريح من الشرع لا تتعجل لأنفاذه على نفسك أو على غيرك إلا بعد أن تطرح على نفسك هذا السؤال : أين محل هذا الأمر أو النهي؟ من هو صاحبه المناسب الذي أوقعه عليه؟ هل هذه هي أيلولته الصحيحة؟ هل أنا في المكان الصحيح والزمان الصحيح والشخص الصحيح والواقعة الصحيحة؟ لا تظن أن إيقاع الشريعة بجهل لمحالها أو لمآلاتها ونتائجها وثمراتها طاعة بل هي معصية فكرية والمعصية الفكرية أشد وزرا قطعا قاطعا من المعصية الغريزية. تعليق الحكم الصحيح الصريح عند تخلف مآله أو محله أو واقعه عبادة. وإيقاعة في غير محله معصية عقلية آثمة.

حوصلة عامة لما تقدم :

ـ فقه التعليل أو الإستصلاح أو التقصيد ...
ـ فقه مقامات المشرع والتشريع ...
ـ فقه المآل أو المحل أو الصيرورة أو الواقع ..

أنظار لا مناص منها معالجة لأي أمر أو نهي أو غير ذلك مما يرد في الوحي لأن ذلك طاعة لقوله سبحانه : وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. أي أن هذه الأنظار وغيرها مما سيعالج في هذه الحلقات إن شاء الله هي من الميزان الذي أنزل مع الكتاب نفسه من الله سبحانه ولا قيام لقسط مع النفس ومع الناس سوى بإعتبار هذه الأنظار إذ القرآن وحده لا يكفي وإلا لما كان الميزان منزلا والميزان وحده لا يكفي وإلا لما أنزل القرآن.

الفصل الرابع : السنة بين الإستقلال التشريعي والبيان التشريعي

تحرير المشكلة.

السنة ـ وتسمى الحديث كذلك لغلبة الحديث عليها تدوينا لا حقيقة مقارنة بالفعل والإقرار ـ تتركب من القول والعمل والإقرار. أما الصفة فهي لا تعد سنة حتى لو حاول بعضهم دسها هنا. السنة هي المصدر الثاني للتشريع في الإسلام بلا ريب. وظيفتها حددها القرآن نفسه في أكثر من موضع إذ قال : لتبين للناس ما نزل إليهم. أي أن وظيفة النبي عليه الصلاة والسلام هي التبيين ـ وليس البيان لسانا بل التبيين من فعل بين يبين تبيينا وليس أبان يبين بيانا ذلك أن البيان منسوب إليه سبحانه في سورة القيامة إذ في التبيين تفعيل أي زيادة على البيان وهذه الزيادة هي محل التحرير هنا ـ تلك هي وظيفة السنة تحديدا أما بصفة عامة أو كيف تزاول فقد بينها كذلك الوحي نفسه ـ أي القرآن نفسه ـ في مواضع أخرى قال فيها : يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ـ فهي إذن : تلاوة الكتاب ليستمع إليه العرب فيعقلونه دون حاجة إلى تفسير + التزكية + تعليمهم الكتاب أي القرآن وهذه هي وظيفة السنة المذكورة آنفا + تعليمهم الحكمة وهي إما السنة وخاصة السيرة التي تشتبك مع الواقع ويفيد منها المصلحون الذين يعالجون الواقع كثيرا أو الميزان المشار إليه آنفا أي إعمال أنظار لا مناص منها ودل عليها

الكتاب نفسه لإحكام الفهم وإحكام التنزيل وفي كل الأحوال فإن الحكمة شيء يعضد الكتاب وإلا لما إحتاج إلى واو العطف والمغايرة هنا كما إحتاج إليها عند حديثه عن الكتاب والميزان في سورة الحديد آنفه الذكر.

من تبيين السنة للكتاب.

ـ **تفصيل مجمل** إذ يغلب على الكتاب الإجمال حفاظا على طبيعته الإطلاقية الشمولية الجماعية العامة ليكون صالحا لمعالجة كل زمان وكل مكان وكل عرف وكل حال. من ذلك أنه فصل في العقيدة بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره وهو لم يذكر بالحرف في القرآن وأنه فصل في الصلاة والزكاة والحج وغيرها من العبادات المذكورة إجمالا في القرآن الكريم. وتلك هي طبيعة السنة التي تميل إلى التفصيل تبيينا لمجملات القرآن.

ـ **تخصيص العام** إذ يغلب على القرآن العموم ولو خصص لخص شبه الجزيرة العربية وظروفها البدوية. ويضيق المجال هنا عن ضرب الأمثلة سيما أن الموضوع من صميم علم أصول الفقه.

ـ **تقييد المطلق** إذ يغلب على القرآن الإطلاق للغرض نفسه ونعالج له بعض الأمثلة في القابل بحوله سبحانه.

ـ **هناك مستوى آخر** أدخل هنا ولا يعد تبيينا وهو تأكيد السنة للقرآن وهو كثير جدا من مثل تحريضه ترغيبا وترهيبا على الواجبات والفرائض أو المنهيات وخاصة الكبائر وليس هذا من باب التبيين إلا تعضيدا وتأكيدا إثراء وتخصيبا للمشروعية فحسب.

سؤال الفصل هو : هل تستقل السنة بالتشريع؟

هذا مبحث أصولي قديم إختلف فيه الناس سوى أن من يسبر غور هذا الإختلاف يجده كإختلافات أخرى كثيرة دائرا حول اللفظ وليس حول المعنى. موئل ذلك أصوليا هو هذا السؤال الكبير : هل أن ما إنفردت به السنة ـ حتى لو صح قطعا سندا كالمتفق عليه ـ من دون سابق تشريع في القرآن ولا إستلالا منه وإستئناسا في أي إتجاه كسد الذريعة أو فتحها أو غير ذلك .. هل أن ذلك يعد إستقلالا؟ هناك سؤال سابق هو : هل أن ذلك واقع أصلا؟

مقاربات في الجواب الصحيح.

ـ إذا كان الأمر متعلقا بالإعتقاد أو العبادة فلا ضير في ذلك إذ أن مهمة السنة التبيين وهي التي جاءت بعقيدة القضاء والقدر خيره وشره ولم يذكر هذا نصا في القرآن الكريم ولو مرة واحدة وكذا تفصيلات عقدية أخرى فرعية لا أصلية ركنية. كما أن ذلك عند وروده وهو كثير متعلقا بالعبادات فليس هو إستقلال بل تبيين من باب تفصيل المجمل وتلك هي مهمتها. هو إذن ليس واقعا أي لا وجود لتشريع ـ تشريع بمعنى التشريع أي يوجب الحق ويبطل الباطل ويفضي إلى الثواب أو إلى العقاب أو إلى الخير في الدنيا أو الشر وليس مجرد تحريض أو حث أو حض أو ترغيب أو ترهيب ـ يستقل عن القرآن. وما تراءى لبعضهم واقعا يمكن أن يكون إما مندرجا تحت التبيين بأي باب من أبوابه آنفة الذكر أو معالجة لدنيا وليس لدين ـ وكلاهما تحت مظلة الإسلام وسقف الإيمان ـ وهذا كثير جدا يدخل في باب مقامات المشرع أو التشريع كما يدخل تحت طائلة فقه السياسة الشرعية بالتعبير القديم.

أنواع الإستقلال.

الإستقلال من إستقل وهو فعل مزيد أصله المجرد قل وأقل أي حمل نفسه أو غيره. التركيب محدث وهو يعني إما إستقلالا كاملا أو وظيفيا خادما. الإستقلال الكامل للسنة عن القرآن الكريم لا أظن أن عاقلا يقول به لأنه يوحي بإزدواجية التشريع ومن طبيعة التشريع ـ ولنا في الوضعي منه تشبيه جميل إذ أن الدستور في أي دولة لا يكون نافذا حتى تعضده مذكرات دستورية أو قوانين ومناشير وإجراءات وغير ذلك تفسره وتفعل به ما فعلت السنة بالقرآن أي تخصيصا وتقييدا وتفصيلا أو تأكيدا ـ أن يكون أحادي الرأس لأنه قائد وإزدواجية القيادة في الكون متعذرة من البيت إلى الدولة. أما الإستقلال الوظيفي للسنة فهو كائن بالضرورة لأنه يلبي وظيفة التبيين. هو إستقلال نسبي وظيفي خدمي. هذا كلام صحيح لا غبار عليه.

كلمة في المنهاج الأصولي تساهم في حسم المسألة.

سار الصحابة ومن بعدهم حتى عقود قريبة على منهاج أصولي قوامه أن رأس التشريع الملزم هو القرآن الكريم وحده وأن السنة مبينة لمبين وسلطان المبين على المبين ـ الأول إسم مفعول والثاني إسم فاعل ـ جلية كسلطان الرئيس على المتحدث بإسمه. ولذلك علقوا أشياء كثيرة تعرضنا لبعضها إجمالا أو تفصيلا في حلقة سابقة مما فعله هو نفسه عليه الصلاة والسلام بسبب إختلاف الزمان والمكان وليس بسبب إختلاف رأسية التشريع أو تراتبيته. عنوان هذا المنهاج الأصولي الإسلامي الأرشد هو أن ما ورد في السنة مهما بغلت صحته السندية ـ ولا حديث هنا عن التأكيد طبعا ـ لا يعدو أن يكون من وظيفتها التبيينية أي تقييدا أو تخصيصا أو تفصيلا وما زاد عن ذلك فلا يعدو أن يكون ترغيبا أو ترهيبا وبذلك سميت السنة عندهم سنة تشريعية وسنة لا تشريعية وهي الأكثر كمية. ومع سيادة الإنحطاط وهيمنة التقليد وشغب الإجترار تسلل إلينا ما يشغب على هذا المنهاج الإصولي الأرشد إذ قال بعضهم بوجوب ما ورد في السنة أو حرميتها عدا التأكيد طبعا ومستويات التبيين الثلاثة الأخرى أي التقييد والتخصيص والتفصيل. وظهرت قالة إستقلال السنة بالتشريع ظهورا مشوها جعلها رأسا ثانيا أو آخر لأحادية التشريع وهنا كانت المشكلة ومع إنصراف الناس لسبب أو آخر عن معالجة القضايا الأصولية إتخذ هذا المنهاج الأصولي الجديد المنحرف له فينا مكانا معتبرا مما دفع بعضهم إلى التحريف ودفع بعضهم الآخر إلى رد بعض السنة أما البقية فقد آلت إلى الإستقالة والسلبية كالعادة.

أمثلة.

1 ـ ثبت نهيه عن لحوم الحمر الأهلية في خيبر وعن ذوات المخالب من الطير والأنياب من السباع وعن الحرير للرجال وعن المياثر والقسية وأواني الذهب والفضة وعن الصلاة بعد العصر وأشياء أخرى كثيرة تصل إلى العشرات منها على سبيل المثال نهيه عن الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها وعن تخصيص أنواع خاصة مما سماه المالكية المدخر المقتات أو من الحاجات الأساسية كالذهب والفضة وبعض أنواع الأكل أن يباع بعضها ببعض ومن هذه أحاديث كثيرة صحيحة مقاومة لربا الفضل ... وإحصاء المنهيات هنا غير ممكن حقا. وليس غرضي الإحصاء ولكن التمثيل بغرض النفاذ إلى تحصيل الدرس.

2 - من الفقهاء من أول ذلك بالحاجة إليه من مثل الخيول التي أباحها المالكية ومنهم من علل ذلك بالجلالة وهي أكل القاذورات لأن الإنسان نفسيا ـ وليس بدنيا فحسب ـ صنيعة أكله وشربه وملبسه ومسكنه وبيئته وأهله وغير ذلك وبالشيء نفسه علل بعضهم السباع والطيور ومنهم من حمل الملابس ـ الحرير الصافي مثلا سيما من بعد إباحته لحكة لخاله سعد ـ على تجنب ما يدعو إلى القعود والدعة أن ينطلق المرء في مناكب الأرض معمرا أو مجاهدا. كما علل بعضهم الصلاة من بعد العصر سدا لذريعة الصلاة أوان غروبها لصحة ورود النهي فيه مثل شروقها. بل إن بعضهم ـ في مشهد عقلي يفرض عليك إحترامه ـ علل عدم الجمع على المرأة بخالتها وعمتها مواصلة لعلة عدم الجمع بين الأختين الوارد في القرآن صحيحا صريحا. ومثله ما ورد كثيرا وصحيحا في الآن نفسه في الوقاية وإجتناب أسباب ربا الفضل ـ وليس النسيئة لوضوح أمره ـ وقال بعضهم ناظما الممنوعات في خيط عقلي متماسك أنها تشترك فيما تشتد إليه الحاجة بل الضرورة في حفظ النفس وكليات الإنسان المذكورة في أعلى السلم الغزالي المعروفة ولكن هذه الحاجات متغيرة فالسيارة اليوم مثلا في بعض المجتمعات أشد من الحاجة إلى بعض المآكل الواردة في الحديث ومثلها بل ربما قبلها المسكن إلخ ..

الخلاصة.

1 - عند التحقيق لا تستقل السنة بالتشريع على معنى أن الإستقلال كامل نهائي كما تستقل دولة عن دولة أو إنسان عن إنسان بل هو لمن إراد إستخدام الإستقلال وظيفي خدمي نسبي فرعي بغرض خدمة وظيفة التبيين التي لا يمكن تجاوزها لأنها نص منصوص. وكذلك على معنى أن التشريع يعني أمرين لا ثالث لهما فقها : التشريع الملزم سواء إيجابا وحقه الثواب أو تحريما وحقه العقاب. مراعاة هذا المعنى في التشريع لا بد منه حتى لا يتحول الفصل إلى وعظ لأن المحل ليس محل وعظ ولا ترغيب بل محل تسطير وتأصيل.

2 - ما بدا لبعضهم ـ أو لبعضنا ـ إستقلالا يوحي بإزدواجية الرأسية أو القيادية التشريعية في الإسلام لا يعدو أن يكون مندرجا إما تحت مقام من المقامات ـ وخاصة مقام الإمامة السياسية أو الحربية بسبب أنه يقوم عليه الصلاة والسلام في تلك الأيام بالقيادة الدينية والزمانية كليهما بالكامل بالتعبير القديم وإما أنه مندرج تحت سلطان التعليل والتقصيد والإستصلاح وهو كذلك يمكن تقييده تحت مقام العلم والفقه من باب الإمامة السياسية التي تستقل بتقييد المباح كما هو معروف عند طلبة العلم وإما أنه مندرج تحت سلطان حسن التواصل مع التعليل القرآني ويظهر هذا خاصة في نهيه عن الجمع بين المرأة وعمتها لأن العلة التي لأجلها نهى عن الجمع بين الأختين هي نفسها أي حماية الدائرة الرحمية من أسباب الخصومة والضرار التي تهدم العائلة فينهدم المجتمع وتذهب ريح الأمة ومنها ما يندرج تحت سلطان الحماية البدنية والنفسية للناس وهو كذلك ضرب من ضروب التشريع الإمامي السياسي في دولة يكون رأسمالها الإنسان نفسا وعقلا ومنها ما يندرج تحت سلطان الإشارة إلى الفضل من الأمور حماية للنفس كذلك مرة أخرى أن تعافس سفساف الأمر ويتأكد هذا وغيره عندما نعلم أنه رخص في أحيان كثيرة لبعض أصحابه فيما سبق أن نهى عنه وهو دليل إستئناسي قوي على أن الأمر ليس تشريعا ولا إستقلالا بالتشريع.

3 ـ المقصود من هذا الفصل هو :

ـ التمييز بين السنة التشريعية الملزمة وعاقبتها الطاعة والثواب أو المعصية والعقوبة وبين السنة غير التشريعية وهي الأكثر كمية وهي ترغيب وترهيب.

ـ الإنتقال من القول بإستقلال السنة إستقلالا كاملا باتا إيحاء غير مقصود بإزدواجية الرأسية التشريعية إلى القول بالإستقلال الوظيفي خدمة لمقصد التبيين المنصوص عليها نصا لا إجتهادا. فلا يعلو سلطان المبين ـ بكسر الياء المضعفة ـ على سلطان المبين.

ـ يحتاج إلى هذا طلبة العلم سيما من الذين يتعرضون لإسئلة الناس إذ أن الحاجات التي جعلته يرخص في منهي عنه هي حاجات لا يخلو منها زمان ولا مكان فلا يرتبون على المقترف معصية وعقابا بسبب إمكانية إندراج ذلك تحت أي سلطان من السلطانات المذكورة آنفا وغيرها كثير مما يضيق عنه هذا المجال.

ـ توسيع دائرة الفقه بالتشريع ومصالحه ومنافعه ومقاصده ومستوياته وذلك يكون بالتمييز وليس كالتمييز بين المستويات مفتاحا يوسع دائرة الفقه وإلا إستحال المفتي والمسؤول أكمه لا يعرف الألوان أصلا أو أعمى لا يميز بينها فهذا لا يسأل عن الجمال والزينة.

ـ الوقوف في السنة قولا وفعلا وإقرارا عند وظيفة التبيين للقرآن المتكفل بالتشريع بمعناه الأصولي الفقهي المعروف وليس بالمعنى العرفي السائد لأن الخلط في المنهاج الأصولي الإسلامي الذي تواترت به الآيات والأحاديث والسيرة وصنائع الصحابة في الخلافة الراشدة هو خلط شنيع وفظيع ويوقع الناس في الحرج والعنت والمشقة وهي موضوعات نصا منصوصا ويوقع الذين يتعرضون إلى أسئلة الناس في القول على الله وعلى دينه بغير علم وكفى به إثما مبينا.

الفصل الخامس : رأس العلم العلم بقانون الإختلاف

القرآن الكريم هو مرجع التفكير الديني. هذه حقيقة لا يمارى فيها ولكن التجربة أعطت أن السلوك لا يجري دوما فينا بمقتضاها. هناك قضية مهمة حقا عنوانها : كيف تبنى الفكرة في الرأس لتصبح شيئا صنوا للصنم الذي يموت المرء لأجله؟ ليس هنا محل معالجتها ولكن سأتفرغ لها يوما بإذنه سبحانه. الفكرة هي التي تجعل الناس مختلفين إختلافا مدمرا لا إيجابيا. الفكرة ـ بغض النظر عن صوابيتها أو خطئها ـ هي الجرثومة الكامنة فينا فهي توجهنا اينما شاءت من بعد ما سمحنا لها بوعي أو بغفلة بأن تقطن سويداء الفؤاد منا. دعنا من هذا الآن.

ما هو دليلي على أن رأس العلم هو العلم بقانون الإختلاف؟

هو قوله سبحانه في سورة مكية ـ فاطر ـ : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك.إنما يخشى الله من عباده العلماء. إن الله عزيز غفور . آية 27 و 28

تحليل السياق :

1 - الآية بسورتها مكية لأنها تقرر المبادئ العامة في فقه الحياة وما ينبغي له أن يتأخر إذ تكفل القرآن المكي على إمتداد عقد ونيف بنحت الهوية الإسلامية للناس.

2 - يأبى هذا السياق إلا أن يرسخ قيمة الإختلاف في مواقع ثلاثة لصيقة بعضها ببعض لعله يطرق بقوة ولطف في الآن نفسه على أذن السامع فيعلمه أن الإختلاف سنة إلهية وقانون رحماني وإرادة ربانية لا يسأل عنها صاحبها ولكن تستقرأ هذه القيمة في تضاريس الحياة إذ لا تستقيم الحياة بدونها.

3 - الماء النازل من السماء واحد طعما وريحا ولونا ولكنه يثمر المختلف طعما ولونا وريحا والأرض واحدة في تربتها ولكنها تثمر الجبال المختلفة علوا وعرضا و طولا وصلابة ومساهمة في إحداث التوازن البيئي. إختلاف حقيقي لا موهوم ذلك الذي يتردد بين السواد والبياض في الجبال. النطفة السائلة واحدة كريهة الريح لا ترى إلا بمجاهر حديثة عظمى ولكنها تثمر أناسا ودواب وأنعاما مختلفين لونا وعرقا ولسانا ودينا وعنصرا. الإختلاف يغشى الكون كله فلا يند عنه ما ينزل من السماء ولا ما ينبت من الأرض ولا ما يخرج من الأرحام.

4 - اللون هنا رمز للاختلاف والوحي مملوء رمزية. التيمم مثلا لا يزيل قذارة قطعا و لكنه يرمز إلى الطاعة بالغيب. إختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام هو إختلاف الألسنة والدين والمذهب والمزاج والعنصر والأصل والقدر والمنفعة والعمل والكسب. بمثل ما يقرع الإختلاف سمعك ليأخذك بقوة إلى القيمة المرادة يقرع اللون سمعك كذلك إذ يصر الوحي على إختلاف اللون : لون الثمرات ولون الحبال ولون الناس والدواب والأنعام.

5 - ثم تختم قيمة الإختلاف بفاصلة الآية المزدوجة : فاصلة أولى تقرر حقيقة حصرية قصرية قوامها أن العلم مقصور على من يخشى الله. تركيب قصري حصري يملأ الفاصلة القرآنية. يريد أن يقول : لو حدثتم يوما أن للخشية مصدر آخر عدا العلم فلا تصدقوا. إنما يخشى الله من عباده العلماء فحسب.

6 - العلماء بماذا؟ هذا هو بيت الآية ولبها المحكم. من سأل هذا السؤال فقد فقه ومن تنكبه أو تجاهله أو أعرض عنه فلا حظ له من فقه أبدا. السؤال هو : العلماء بم؟ السياق يجيبك بأن مخ العلم الذي يرفع صاحبه إلى الخشية ـ خشية الله سبحانه ـ إنما هو العلم بقانون الإختلاف وسنة التعدد وناموس التنوع. هذا مفتاح من أكبر مفاتح القرآن الكريم. وفي مبسوط الأمل أن أكتب في مفاتح القرآن بحوله سبحانه.

7 - ثم تتلوها الفاصلة الأخرى بلا تردد : إن الله عزيز غفور لتقول لك أن الله سبحانه عزيز يشيد كونه وخلقه على قانون الإزدواج ـ أو الزوجية الذي هو أقوى قانون كوني خلقي عمراني طرا مطلقا وبلا أي خلاف ـ إذ لا يتوازن الكون ولا يعتدل حراكه إلا بذلك القانون. تلك عزته سبحانه وهو يهبها علما ـ لا خلقا ـ لمن آمن بعزته وأبصر هذا القانون المطرد الذي لا يتخلف. ومع عزته الموحية بالقوة تعتدل أسماؤه بالمغفرة هنا. لو كان عزيزا بهذا المشيد العظيم فحسب لأنسحق الإنسان وأسنت الحياة بل هو مع عزة وقوة وحول وطول غفور. يستقبل كونه وخلقه وعمرانه عزته ليستد توازنا بناموس التعدد بمثل ما يستقبل الإنسان ـ الذي يجري عليه القانون نفسه كما ورد في الآية نفسها ـ مغفرته. الجبال السود الغرابيب تتحمل عزته أما الإنسان فتليق به مغفرته.

خلاصات :

1 - لا تساس الحياة إلا بالعلم ورأس العلم العلم بقانون التعدد. تعلمنا ونحن أطفال يافعون أن رأس الحكمة مخافة الله وأن رأس العلم خشية الله. هذا صحيح . ولكن من أين تأتي الخشية والحكمة؟ الآية تخبرنا أن مصدر الخشية هو العلم بهذا الناموس الماضي المطرد أي التنوع في كل شيء والتعدد في كل شيء والإختلاف في كل شيء.

2 - يحدث إضطراب فكري هنا إذ تربى الناس على غير هذا. لا ننكر أننا تربينا ومازال الناس يتربون اليوم على غير هذا. تربينا على عقدة دينية فاسدة قوامها أن الله لنا وحدنا والقرآن لنا وحدنا والرسول لنا وحدنا والأرض لنا وحدنا والهداية لنا وحدنا. ليس هناك سوانا في هذا الكون. لم يسأل أحدنا لم يرزق الله قوما كفروا به؟ هل ننكر أن غياب وعينا بهذا القانون الذي يحيل على الحرية والكرامة والعدل هو المسؤول عن تخلفنا وإنحطاطنا؟ ألم ننحط متى غفلنا عن هذا الناموس الماضي؟

3 - دعني أخلص إلى أكبر ثمرتين من هذا القانون العظيم بل هو أعظم قانون إلهي :

ـ الثمرة الأولى هي أن كل شيء متعدد مختلف متنوع وبلا أي إستثناء ليظل الله وحده سبحانه مفارقا لذلك إذ ليس كمثله شيء فهو الواحد الأحد الذي لا يختلف ولا يتعدد ولا يتنوع. المغزى من ذلك هو أن قانون التنوع ـ أقوى قانون وأعظم ناموس ـ يخدم عقيدة الإسلام ودين التوحيد. الأمر طبيعي جدا إذ يحيلك إلى أن كل شيء مخلوق ـ وكل شيء مخلوق ـ يشترك مع غيره في المصدرية الواحدية أي الله سبحانه. ولو كان ذلك غير كذلك لسعى بعضهم إلى ذي العرش أو لإختصما من يقود سفينة الكون ومن يدبر أمرها.

ـ الثمرة الثانية هي أن كل شيء خلق متعددا مختلفا حتى الدين ـ أجل. حتى الدين ـ لخدمة غرض آخر قوامه أن الحياة هي ثمرة الحركة وأن الحركة هي ثمرة تدافع وأن التدافع لا يكون إلا من لدن مشتركين ومختلفين معا وبتعالجهما يكون التدافع فالحركة فالحياة فتحقق إرادته سبحانه. المغزى من ذلك هو أن يدفع الناس دفعا إلى إستثمار قانون التعدد لتوليد الحركة التي لا تولد إلا بالبحث والإجتهاد والعلوم والمعارف ولذلك كانت إكتشافات وإختراعات سبق أسلافنا إليها يوما إذ فقهوا المقصد الأسنى من قانون التعدد.

يخدم قانون الأختلاف إذن الدين والدنيا معا. يخدم الدين ليكون الله واحدا أحدا ليس كمثله شيء ويكون الإنسان بذا مستوي الحياة العقدية ويخدم الدنيا لتكون الحياة مخبر تجارب للناس العلماء يحركون المختلفات ليكون تدافع فتولد حركة وحياة.

أما آن لنا أن نصحح قيمة العلم وماهية العلماء؟
العلم بالجزئيات شأن الصغار والأطفال.

العلم بالكليات العظمى شأن الكبار أي شأن العلماء.
العلم بأعظم قانون كوني خلقي عمراني في الوجود والحياة هو العلم الذي يحتاجه الإنسان وبه يكون عالما بشهادة العليم الخبير سبحانه.
متى نعي هذا؟
بعدما يدمر بعضنا بعضا؟
إذا كتبنا على أنفسنا تجاهل القرآن الذي يهدينا فقه الحياة أفلا نتواضع للغربيين الذين فقهوا هذه السنة من دون وازع ديني بل ببحث عقلي فأسسوا حضارة هي التي تقصفنا بثمرات قانون التنوع؟
العجب العجاب هو أن نتجاهل لب العلم في كتابنا وفي الآن نفسه نتجاهل كبرا في الحالين منجزات الآخرين فلا نقيم بذا لا دينا قوامه العلمي الأعظم قانون التعدد ولا نقيم دنيا.

الفصل السادس : معايير التشريع مزدوجة فلا تعمل معيار هذا الحقل في ذاك

الذين يشدون أنفسهم إلى اللسان العربي الهجين المعاصر منفصلين عن عين اللسان القح يضلون ويضلون. من ذلك أن تعبير : معايير مزدوجة .. تعبير مستهجن بسبب أن الإعلام الفضائي فرض ذلك. تلك هي الإمعية اللسانية لمن يغار على لسانه أم هويته. أما الهجين..فالصمت أولى.
الإزدواج أعلى قانون إلهي في الكون والعمران وعبر عنه بالزوجية فمن لم يفقه بعد قيمة الإزدواج فليتدارك أمره. ودعك من الهجانة.

لم كانت معايير التشريع مزدوجة؟

لأن التشريع قانون يعالج أمرين مزدوجين هما الحياة والإنسان وكلاهما مزدوج أي متعدد التركيب غير أحادي البعد. العلاقة بين الدين والسياسة ـ مثلا ـ تبدو مفهومة معقولة مقبولة عند من يعالجها بمعايير الإزدواج أي الجمع بين علاقتي الفصل والوصل معا أما من يسلك الأحادية النظرية فسيجد نفسه إما تقليديا إلى الغباء الأسطوري أدنى أو سلفيا مشوها إلى الحماقة أقرب أو ليبراليا عالمانيا بالعلو والكبر أخلق.

معايير التشريع هي :

1 - الحق والباطل وهو معيار حقله الوحيد الأوحد هو الإيمان أي العقيدة بالتعبير المستحدث وثمرته هي الكفر أو الإيمان ولا وجود لخطية حدية في الإسلام كله عدا هنا.

2 - الطاعة والمعصية وهو معيار حقله العبادة بمعناها الشرعي المعروف أي العبادة الموقوفة حتى لو خرجت عن دائرة الأركان المعروفة. ثمرة هذا المعيار هو الصلاح أو الفسق.

3 - الحلال والحرام وهو معيار حقله المعاملات المادية والمعنوية التي عادة ما تكون إلى الفردية والشخصية والدائرة الدنيا أقرب من مثل المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات والمركوبات والمسكونات والمنظورات والملموسات والمسموعات والمصنوعات. ثمرة هذا المعيار هي كذلك الصلاح والطاعة أو العصيان والفسق.

4 - المصلحة والمفسدة وهو معيار حقله المعاملات الخارجية التي بينها وبين الشخصيات والفرديات مسافة وربما يكون القول أولى أن الحقل المفضل لهذا المعيار بتعبيرنا المعاصر هو الحقل السياسي بمعناه الواسع أي الشأن الحزبي والدولي داخليا وخارجيا ماليا وتنظيميا. ثمرة هذا المعيار هي الإصابة أو الخطإ لأنه حقل إجتهادي كما سنرى في الأمثلة أسفل هذا.

5 - العدل والجور وهو معيار حقله المعاملات المالية والإقتصادية والمادية سواء بين الناس بعضهم مع بعض أو بين الكيانات والدول. ثمرة هذا المعيار هو كذلك الإصابة أو الخطإ.

6 - السنة أو البدعة وهو معيار يمكن ألا يستقل بنفسه عن معيار الطاعة والمعصية الذي مر بنا آنفا لأنه فرع عنه بمعنى ما. ثمرة هذا المعيار هو العلم أو الجهل أو العلم والهوى.

أمثلة.

المعيار الأول : الحق والباطل.

مضمون هذا الحقل هو الأركان الستة المعروفة للإيمان دون فروعها الكثيرة. فمن إستوفاها نطقا ولو إختصارا في شهادة التوحيد فهو المؤمن المسلم الذي له ذمة الله ورسوله التي لا تخفر ومن يخفرها يخفر في الدنيا وخفر الآخرة أشد. الذين يضيفون إليها الفروع هم الذين وصفهم عليه الصلاة والسلام بأنهم غالون محرفون والتحريف زيادة ونقصانا معا لأنه يحرك الحرف والحرف هو الحد. ومثلهم الذين يستخدمون معايير أخرى هنا أي يحكمون على المخطئ مصلحة أو عدلا أو الفاسق عمدا أو مرتكب الحرام قصدا بالكفر. تأشيرة الإيمان في الدنيا هي إعلان التوحيد إلا أن يكون الإعلان موجعا فيكتم. أما حساب الآخرة فلا يتقحمه إلا أحمق يجنح إلى تضييق دائرة الإيمان وتوسيع دائرة الكفر.

المعيار الثاني : الطاعة والمعصية.

من الأمثلة على ذلك ـ وهو في الصحيحين ـ أنه عليه الصلاة والسلام لم يعنف حتى بالقول وحركة الجسد رجلا من صحابته وقع على إمرأته في يوم رمضان عمدا ولما جاءه أخبره بالكفارات ترتيبا ولما قال الرجل في كل مرة أنه لا يقدر على تلك الكفارة يصدقه ولا يحقق معه حتى قال أنه لا يقدر حتى على أدنى شيء منها فلم يتركه عليه الصلاة والسلام رغم ذلك بل ذهب هو بنفسه يبحث له عن عذق تمر يتصدق به فلما جاءه به قال ما بين لابتيها أي المدينة من هو أحوج إليه مني لفقري فناوله إياه ليأكله مع زوجه التي وقع عليها في رمضان وهو يضحك بادية

نواجذه عليه الصلاة والسلام. معنى ذلك هو أن هذه الجريرة الكبيرة عدها عليه الصلاة والسلام معصية لا تستحق أكثر من بيان الكفارة مع يسر شديد جدا في تنفيذ الكفارات وإنتهى الأمر إلى أن العاصي معصية ثقيلة ـ نسميه نحن اليوم لفرط تقوانا المزيفة ولسان الحال يقول لنا كبرا وغرورا أننا أتقى من ذلك الرجل بل أتقى منه هو نفسه عليه الصلاة والسلام : إنتهاك حرمة رمضان ـ عاد لأهله بعذق تمر أي أثيب في مكان عقوبة.

المعيار الثالث : الحلال والحرام.

شارب الخمر مثلا أمر عليه الصلاة والسلام بضربه ضربا خفيفا بالخفاف وليس هنا عدد محدد ولكن أحصيت في حدود أربعين أو زهاء ذلك. الخمر كبيرة دون ريب. ومثله كل كبيرة بل هو أم الخبائث بتعبيره هو نفسه عليه الصلاة والسلام. المشكلة هنا ليست في مستوى العلم ولكن المشكلة هي حماسة مغرورة للدين تدفع بصاحبها إلى إعتبار العصاة الواقعين في الكبائر كفارا أو شبه كفار أو يرتب عليهم ما يستحقه الكافر وليس الفاسق. ومن أروع الأمثلة في القرآن الكريم على ذلك أنه سبحانه عد الآكل مما لم يذكر إسم الله عليه ومثله المرتكب للشرك الأوسط بتعبير إبن تيمية أي ليس الأكبر من مثل السجود لغير الله .. عدهم سبحانه فسقة في أوائل سورة المائدة. الفسق عند نسبته إلى المسلم ليس كفرا بل هو صاحب الكبيرة.

المعيار الرابع : المصلحة والمفسدة.

الأمثلة هنا فيما سمي قديما بالسياسة الشرعية لا تكاد تحصى ولا تعد لكثرتها في سيرته عليه الصلاة والسلام ولكن أقصر فيها على مثالين أو نحو ذلك أن يناداح القلم. لما هم عليه الصلاة والسلام بأن يعطي ثلث ميزانية الدولة كلها إلى غطفان .. هذا العمل مفسدة محضة منظورا إليه من هذه الزاوية. ولكن عندما نضم إليه المصلحة التي يأتي بها نعلم يقينا أن تلك المفسدة المحضة تتحول إلى مفسدة تختلط بها مصلحة وهي فك الحصار العسكري المضروب منذ زهاء شهر وأزيد على المدينة. المفسدة باقية لا تنفك عن العمل ولكن المصلحة رجحت بها. لا يحاكم هذا بالحلال والحرام لأنه عمل متعد أو متعدد الأبعاد أي مركب. من يشرب خمرا مثلا هذا عمل أحادي البعد غير مركب ولذلك يحكم عليه بالحرمة. أما من يعطي المشرك المحارب مالا من ميزانية الدولة فهذا عمل مركب لأنه يتركب من مال يعطى ومن مشرك يقبض هذا المال. ولما إقترض عليه الصلاة والسلام أسلحة من قريش لنصرة قبيلة أخرى مشركة هي حليفته سياسيا وعسكريا.. هذا عمل ينظر إليه أنه مفسدة لأنه تعامل عسكري مع عدو ولكن عندما نواصل النظر نلفى أن هذه المفسدة تجلب مصلحة أخرى أرجح وهي صد هجوم ضد حليفه أي وفاء بالعهد. وأمثلة أخرى لا تحصى في سيرته. ذلك هو معنى أن المعاملات كلما إبتعدت عن الشأن الفردي الشخصي الضيق لا يمكن حكمها بالحرام والحلال أو الطاعة والمعصية لأنها تقديرات سياسية تختلف فيها الأنظار وتخضع دوما إلى موازين القوى فإذا حكمتها بالحق والباطل إنقسم المسلمون أنفسهم ـ الذين عارضوا مثلا قضية مال غطفان في الخندق ـ إلى فريقين. فريق مؤمن وفريق كافر أو فريق مطيع وآخر عاص.

المعيار الخامس : العدل والجور.

الأمثلة هنا كذلك لا تكاد تحصى ولا تعد لكثرتها في سيرته عليه الصلاة والسلام. منها أنه عليه الصلاة السلام إستأجر مشركا ليكون قائدا لأخطر رحلة وأكبر عمل في سيرته كلها أي الهجرة التي كانت محفوفة بالمخاطر فإن نجحت نجح الإسلام وإن أخفقت أخفق الإسلام. الناظر إلى هذا العمل من زاوية واحدة يجده عملا جائرا لأنه يمكن مشركا من الإطلاع على عمل سري للمسلمين وقد يدلي به إلى العدو. ولكن عندما نواصل النظر نلفى أن هذا المشرك أمين ولذلك رجحت مصلحته أي الأمانة على مفسدته أي الشرك وإحتمال الوشاية. الوثيقة التي بناها عليه الصلاة والسلام مع أكبر العائلات الإسرائيلية في المدينة ووقعوا عليها بأناملهم في ميثاق وطني ويوم مشهود. مفسدتها أنها تمكن للكفر في دار الإسلام ولكن مصلحتها التي رجحت بها هي سيادة السلم وهيمنة الأمن وبث رسالة صحيحة طيبة عن الإسلام وكرامة الإنسان والإحسان إليه بما يساعد على العمارة أو يكون ذلك سببا لهدايته. إذ ليس هناك في المعاملات البشرية كلها ـ بل في الحياة عدا العقيدة وليس حتى العبادة ـ شيء تمحض للخير كله فلا شر فيه أو للحق كله فلا باطل فيه أو للطاعة كلها فلا معصية فيه ولا للعدل كله فلا جور فيه ولا للمصلحة كلها فلا مفسدة فيها. ذلك هو معنى الإزدواج الذي راعته الشريعة بأن خصت كل حقل من حقول الحياة بمعيار.

خلاصة الفصل.

ـ الشريعة مزدوجة المعايير لمعالجة حياة مزدوجة مركبة وإنسان مركب لا أحادي البعد والمعالجة كما يعرف أهل التطبيب من جنس الحالة. فلا يعالج مركب بمفرد ولا مزدوج بغير مزدوج.

ـ مثل المعايير المزدوجة كمثل الألسنة إذ لا يمكن التخاطب مع صيني إلا بلغته إذا كان لا يجيد غيرها. وكالألوان فلا يناسب هذا اللون كل فستان مثلا أو كل حفل أو كل لابس. روح الشريعة المناسبة والموافقة كما قال الشاطبي.

ـ الخطأ الأكبر الذي يوقع فيه بعض الشباب ـ بل كثير منهم ـ أنفسهم فيه هو الجهل بهذه المعايير أو بإزدواجيتها أو عدم الإعتراف بها أصلا أو عدم فقه معنى إزدواجية الحياة والإنسان وضرورة المعالجة بإزدواجية مثلها. حتى مع العلم بذلك فإن بعضهم يغفل أو تأخذه الحماسة الزائفة أن يعمل معيار الطاعة والمعصية في الحقل العقدي فيكفر الناس أو يعمل معيار الحلال والحرام في الحقل السياسي أو الحقل المالي فيحكم على المجتهدين بالفسق أو ربما بالكفر أصلا وبذا يحكم على نفسه هو أولا بأن الإجتهاد لا مكان له ولا مناص من الإجتهاد لأن الشريعة ذات أبواب مفتوحة سميت مناطق فراغ أو عفو إمتحانا للعقل.

ـ لذا أنصح كل مسلم ومسلمة بأن يسأل نفسه قبل الحكم على أي عمل وقبل خوض أي عمل أصلا : أنا في أي حقل؟ وأي معيار وضعته الشريعة لهذا الحقل؟ لأن المعمل معيارا في غير حقله المناسب كمن يأكل من قدح ماء بفأس مثلا أو كمن يحفر الأرض بإبرة أو كمن يعالج مريضا بالحرق أو كمن يقرأ المكتوب بأذنه لا بعينه.

ـ سؤال ذكي مهم : هذه المعايير المزدوجة والحقول المختلفة هل لها من وكاء يجمعها؟ أجل. وكاؤها الذي يلم شعثها هو الجمع بين الكتاب وبين الميزان أي بين المنصوص عليه وبين الحكمة أو بين الإتباع والإبتداع كل في محله المناسب. إلى ذلك يؤول محكمها كما يؤول إجتهادها حتى الخاطئ منه إذ الخاطئ منه لا يكتشف إلا بمرور الزمن ليكون درسا للخلف من سلفهم.

الفصل السابع : العلم بالسنن أس العمران

أس المشكلة : غربتنا عن الكتاب حرفه قبل حده

ربما كان في خلد صاحب الكشاف والمتأثر به جدا صاحب التحرير والتنوير أن إخراج تفسير بلاغي بياني يساهم في إعادة ربط الناس بالكتاب حرفا أوّلا إذ الحرف هو أبو الكلمة وهذه تصنع جملتها والسياق. ومن هنا يتصحح الفهم بمرجعه الأوّل أي اللسان العربي. كانت فرائد لأصحابها إذ جمعت أوابد ندت ولما خلفت خلوف سمعت بأذني هاتين من يثلب في السفر العاشوري أنه متين لا يوغل. قلت له : أجل. إقترف إبن عاشور الجريمة العظمى في التفسير وكان عليه أن يخطه باللهجة المحلية التونسية أو بالصينية. خذ إليك كلمة سنة مثلا. وسل من يليك الآن : ما معنى السنة؟ ستجاب أنها الحديث. وماهي بذلك في السفر الذي عده أهله ـ حتى من الكافرين به ـ ديوان اللسان. هي هناك : القانون. لما ظفر بهذا نحرير مثل إبن خلدون أنجز فريدة الإسلام التي لم ينجزها غيره : علم الإجتماع السياسي. ولما نددنا عنها كدنا نصدق ـ بل صدقنا ـ رويبضة يدعي أن الخمر ليست حراما لأنها لم ترتبط بلحمة التحريم لبنة إنما بالإجتناب.

ما هي السنن :

هي القوانين المطردة الماضية التي أودعها سبحانه كونه وعمران خلقه. هي سنن مادية أورى منها إشارات علمية لأولي الألباب تكون لهم النطفة الحية الأولى التي منها يخلّقون العلوم والمعارف. وهي سنن معنوية إحتلت من سفر البشرية الأعظم ـ القرآن الكريم ـ نصيبا كبيرا. دعا المرحوم الشيخ الغزالي إلى مقاربة تفسير إجتماعي سنني سببي أن يرمى القرآن أنه كتاب حلال وحرام لا يفترق كثيرا عن الإنجيل والتوراة. دعوات الكبار لا يعقلها الصغار إذ دعا إبن عاشور نفسه إلى إجتراح أصول مقاصدية تعضد الأصول الفقهية ودعا آخر إلى تدوين فقهي جديد يصوغ الحكم في ثوبه المقاصدي القشيب بما هو أدعى للحوار والدعوة ... نحن جيل الخيبة إبداعا فكريا وإجتهادا إنشائيا.

أمثلة من السنن التي ألح عليها القرآن الكريم :

1 - قانون التدرج سواء خلقا كونيا أو بعدا إجتماعيا أو شرطا تشريعيا. ما أخبرنا سبحانه عن مراحل خلق الكون وخلق الإنسان في بطن أمه وبعض مراحل التشريعات من مثل الخمر والربا وغيرهما كثير سوى ليحقننا بمصل التدرج في التدين والإلتزام والدعوة صبرا على أنفسنا وصبرا على الناس وصبرا على التوازنات حتى تنضج وترشد وتتهيأ للتعديل. أليس هذا قانون عمراني أهملناه اليوم وما وعيناه أصلا ومن ذا ظللنا نرفع عقائرنا بتطبيق الشريعة مثلا أو بإستعجال الثمرة السياسية أو قهرا نسلطه على الطفل ظنا سفيها منا أن القهر يصنع منه ملتزما.

2 - قانون الزوجية ومن مناسباته اللبنية والروحية معا أنه ذكر في القرآن زوجا كذلك أي مرتين ولا تعني الزوجية عددا بل تعني مفارقة للأحادية الألهية. هل سألنا لم خلق الله من كل شيء طرا مطلقا ودون أي إستثناء زوجين وليس أحدا أو واحدا؟ أي علاقة لهذا بقوانين الحركة والحياة والتدافع والإصطفاء؟ أي علاقة لهذا بالأحادية الإلهية؟ قانون الزوجية يريد أن يحقننا به بحقنة عمرانية عنوانها أن الحياة لا تولد إلا من رحم حركة وأن الحركة لا تولد إلا من رحم تدافع وأن التدافع لا يولد إلا من رحم إختلاف زوجي ولذلك كانت زوجية الأسرة. أليس هذا درسا بليغا أن قبول المثلية الجنسية يعني ـ بل لا يعني عداها شيئا ـ إعدام الإنسان إذ لا يولد إنسان من سحاق ولا من لواط. وأمثلة أخرى لا تحصى على ضرورة فقه الزوجية.

3 - قانون التقدير. هذا القانون مازال يتيما فقيرا بورا إذ لم يكتب فيه. هو قانون عام مطرد ماض في القرآن الكريم ومعناه أن كل شيء في الدنيا والحياة كونا وخلقا بقدر أي بجرعة تؤدي الغرض فلا تزيد ولا تنقص. أكثر الناس ـ بل كلهم ـ ذهبوا إلى الجانب الإعجازي في التقدير إذ هو من عند الله. هذا الجانب مهم عقديا ولكنه لا يكفي لأن قانون التقدير يحقننا ـ أو يجب أن نحقن بذلك لو وعينا ـ بقيم الضبط والعدل والحساب والدقة ويكون ذلك في كل ما يلينا من كلام وكتابة وتصرف ويشتد الأمر في المختبرات العلمية حيث يكون تنكب التقدير قاتلا. قانون التقدير ربما إلتزم به الأطباء والصيادلة وفرسان العلوم الكونية أكثر من غيرهم إذ أن أي قطرة زائدة أو ناقصة عن القدر المطلوب يخرج عن دائرة القسط والعدل فيكون ضارا قاتلا. أليس بقانون التقدير وطأ الإنسان القمر بقدميه وكان عند العرب تشبه بها المرأة الحسناء الجميلة؟

4 - قانون ظهور الدين وحفظ الذكر. هذا قانون يهم المسلمين فحسب وبخاصة الدعاة منهم إذ أنه يحقننا بحقنة عنوانها ألا خوف على الدين ـ الدين وليس الحياة ـ فهو محفوظ من صاحبه بل محكوم له بالظهور والغلبة. ألا ترى اليوم أن أكثر الدعاة يمتلأ خطابهم بالخوف على الدين وعلى القرآن الكريم نفسه أحيانا؟ أليسا حريا بالخطاب الديني أن يتوجه إلى التخويف من مكانة المرء في الدين وليس من مكانة الدين في الخلق؟ كلما أراد بعضهم تفزيعنا ـ كما يفزع قطيع بذئب ـ قال إن الجهة الفلانية أخرجت مصحفا جديدا فنقع في فخ التفزيع ونفزع وربما كنا قبل دقائق نقرأ وعده بحفظ ذكره في سورة الحجر. المشكلة التي علينا عبئها هي حفظ الإسلام وليس حفظ الدين أي حفظ الحياة مغذوة بالدين وموجهة به. لو حررت المسألة في كلمة واحدة قلت : الله تكفل بحفظ الدين وكفّلنا حفظ الإسلام أي صنع الحياة بتعليماته. حفظ لنا الجذر المغذي وأوكل إلينا حفظ الجذوع والأغصان والثمرات.

5 - قانون الفطرة البشرية. يسمى كذلك قانون الغريزة والجبلة والأصل والطبيعة. أليس قمينا بنا أن نجمع مواقع الإنسان في القرآن إستجماعا لأصول الإنسان فطرة أما أصوله مادة فقد تكفل بها الأطباء. نحتاج إلى تفسير الإنسان قبل تفسير القرآن. الإنسان مفسر في القرآن أي موصوف لنا وصفا تاما فطرة وغريزة وجبلة وطبيعة. الجهل بقانون الفطرة يجعلنا نصنع بأيدينا أصناما بشرية جديدة نعبدها. ألا ترى كم يقدس الناس الصالحون اليوم الصالحين. ألا ترى كم يرذل الإنسان الإنسان لصغيرة أو لمم؟ لن نصنع حياة ونحن نجهل الإنسان. نحتاج إلى كتاب جديد بعنوان : الإنسان ذلك المجهول لصاحبه الطبيب النمساوي إلكسيس كاريل ولكن نبحث جهلنا به معنويا وليس ماديا. مازال الإنسان مجهولا عندنا.

خلاصات :

ليس غرضي إحصاء السنن وقد جمعت من القرآن الكريم منها أربعين عسى أن يلم الله شعثها يوما في كراس. غرضي هو التنبيه إلى أن

التدين بجهل السنن تدين مسدود المآل.

1 - ليس العلم بالسنن حكرا على المصلحين فحسب بل إن المسلم العادي يحتاج فقه سنة الإنسان مثلا فطرة وجبلة حتى يعرف كيف يتصرف مع نفسه في الإصابة وفي الخطإ ومع أهل بيته في النجاح وفي الإخفاق. أما المعالجون للشأن العام في كل حقوله فلا مناص لهم من فقه السنن العمرانية فقها صحيحا وإلا غدوا كساع إلى الهيجاء بدون سلاح.

2 - القرآن الكريم كتاب سنني سببي عمراني إجتماعي بإمتياز شديد وما عليك سوى أن تجرب الأمر بنفسك لتكون أوثق به. العلم بهذه السنن اليوم أوكد لأننا نسحق ونقهر ونظلم فمنا من يتعلق بالمؤامرة ومنا من يتعلق بالقضاء والقدر ومنا من يتعلق بالرؤى المنامية ومنا ومنا .. وعند البحث في سفر حياتك تجده يأخذ بيدك برفق ولطف ليقول لك أن التغيير من حال لحال ـ بغض النظر عن إختلاف إتجاهات الحال ـ لا يفعله الله إلا بعد أن تفعله أنت بنفسك. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وكررها بالحرف مرتين.

3 - ظني كبير أن مما يعوق الناس عن الإسلام أنه لم ينته إليهم أن سفر الحياة فيه كتاب يعالج قضايا التطور والتقدم والنهضة والإصلاح والتخلف والتقهقر والإرتكاس. ظني أنهم يعتقدون أنه كتاب قانوني ككل كتاب أي يقصر إهتمامه على بيان الحلال والحرام شأنه شأن الإنجيل والتوراة. مثقفو الغرب وفلاسفته لا يقبلون على كتاب هذا شأنه سيما أن أتون المعركة الدينية عندهم مازال حاميا.

4 - ظني كبير أنه لو نجحنا في إخراج بيان سنني سببي علمي عمراني إجتماعي للقرآن الكريم وترجم ذلك إلى لغاتهم ـ أما نحن .. فالصمت أولى ـ فإنهم لا يترددون في إعتناق دين هذا الكتاب إذ يدهشهم حقا كما أدهش المرحوم قارودي أكبر فيلسوف غربي معاصر وآني ماري شمل وسغريد هونكه ومراد هوفمان وهم في قمة الفلسفة الغربية.

نصيحتي إلى تلاء سفر الحياة أن يتوقفوا طويلا تلبثا ومكثا كلما مروا على آية سننية سببية عمرانية إذ هي علامة حمراء قانية تسطر قانونا إجتماعيا ما سلكه قوم إلا قاموا حتى لو كانوا في أحض الحضيض. نصيحتي لهم أن يعيدوا تكوين عقولهم على أن القرآن الكريم كتاب فيه ذكرهم الحضاري أي مكانتهم السياسية والمالية في الأرض.

الفصل الثامن : قتال مرتدي اليمامة ومغالطة التدوين

موضوع الردة عن الإسلام وما نسب إليها من حدّ ليس مشكلة إسلامية في واقع الأمر إذ أن الإسلام لم يكن ـ بالتجربة التاريخية الموثقة ـ دينا يرتد عنه بل كان ـ ولا يزال حتى في أحلك الأيام ـ دينا يرتد إليه. الردة مشكلة مسيحية بالأساس ومشكلة الذين يزعمون اللادين بصفة عامة. ما الذي جعلها إذن تتصدر إهتمامات المفكرين وحتى العلماء والمثقفين؟ السبب جلي باهر عنوانه : تغوّل الحضارة الغربية ذات الأصول المسيحية جلب على المسلمين في القرون الأخيرة بخيله ورجله فصدّر إليهم مشكلته ليوحي غزوا فكريا أن الإسلام لا يعترف بحرية العقيدة أو التدين فهو دين القهر والإكراه إمتدادا للقالة الإستشراقية التقليدية القديمة أنه إنتشر بالسيف. وبمثل ما قال إبن خلدون فإن المغلوب عادة ما يكون مولعا بتقليد غالبه فإن جزء كبيرا من المسلمين ـ أعني المثقفين ثقافة دينية وغيرها ـ وقعوا في الفخ أي فخ الإعتذار عن الإسلام والقبول به إبتداء مورطا في السيف والقهر وأنه بما سمي حد الردة يكره الناس عليه وما عنوانه : لا إكراه في الدين إلا كلاما لا يصمد.

<u>مرتدو اليمامة :</u>

عندما أعيت الحيلة مثقفينا أن يعثروا على حد للردة في القرآن والحديث والسيرة لجؤوا إلى إستخدام قضية اليمامة في عهد أبي بكر عليه الرضوان مغالطة تاريخية ودينية في الان نفسه لتكون لهم شاهدا لا يصاول أن الإسلام بإجماع الصحابة يقتل المرتد. وجه المغالطة هنا هو أن أبا بكر والصحابة ـ إذ غدا إجماعا ـ لم يقاتلوا أهل اليمامة بسبب أنهم أنكروا فرضية الزكاة ـ الصدقات بالتعبير القرآني الرسمي ـ وإنما قاتلوهم ـ من بعد جدالات وحوارات ـ بسبب منعهم الدولة الناشئة حقها في المال بمثل ما حدد القرآن الكريم ذلك إذ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام ـ بمقام الولاية السياسية وليس بمقام النبوة إذ لو كان بمقام النبوة لكان لأهل اليمامة حق في عدم إقتطاع جزء من أموالهم لغير النبي ـ بأن يأخذ ـ الأخذ لسانا عربيا يوحي بالقوة ـ من أموالهم صدقة :" خذ من أموالهم صدقة ". لم يكن إذن قتالهم بسبب جحود ديني ولم يؤثر عنهم أصلا أنهم جحدوا الفرضية الدينية للزكاة ولكن كان قتالهم بسبب ما يسمى اليوم فرض الإستقلال الذاتي وأخطر إستتباع للإستقلال الذاتي في كل عصر هو الإستقلال المالي إذ أن الدولة ـ كل دولة ـ تمول بجزء كبير من إيرادات مواطنيها. ألم يقل أبو بكر نفسه عليه الرضوان : لو منعوني عقالا كان يؤدونه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام لقاتلتهم عليه. هو يتكلم بإسم الدولة والأمة وهو يعلم أن أموال الصدقات لم يفوت فيها الوحي حتى للنبي عليه الصلاة والسلام أن يجتهد في توزيعها بل حدد هو مصارفها. ومع مشكلات التدوين وربما مع مشكلات تأخر التدوين نفسه ومشكلات أخرى ورثنا نحن ثقافة دينية منخولة عنونها أن الإسلام يقتل ـ وليس حتى يقاتل ـ المرتد. هذه ردة سياسية بالتعبير المعاصر أو ردة سيادية أي فرض الإستقلال الذاتي والخروج عن الدولة. هذه مغالطة تاريخية ودينية معا قليلون جدا في عصرنا من تصدى لها وحرر خلافها وجلى أكنافها ولكن ظلالها السيئة مازالت تحجب التصور الصحيح فيها.

<u>الخلط بين الردة وبين الحرابة :</u>

لا أتردد في التصريح بأني أتبع المنهاج الأصولي الذي يعد القرآن الكريم هو المصدر الأوثق في رسم العقوبات المتعلقة بالإنسان أي وقوعا في نفسه أو حياته أو ماله أو عرضه بالعقوبة البدنية وما عدا ذلك يؤوّل أنه بمقام الولاية وليس بمقام النبوة والتبليغ أو يغشاه الضعف مناقضة للمنقول أو للأصول أو للعقول كما دوّن علماء الحديث. حياة الإنسان أغلى عند الله من أن تهدر بحديث إلا أن يكون الحديث مستجمعا لكل شروط الصحة المعروفة عند المحققين سندا ومتنا معا وبمقام النبوة والتبليغ وليس بمقام آخر. لا يمكن أن أفهم كيف يعين القرآن الكريم هذا الحد ـ الحرابة مثلا أو القصاص بالقتل ـ ولا يعين الحد الآخر. الأصوليون يقولون : لا يتأخر البيان عن وقت الحاجة.

عين القرآن الكريم حد الحرابة بوضوح وجلاء في قوله : إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا .. ".

سماها حرابة وإفسادا في الأرض وصورتها أن يقوم شخص فما أكثر بالعدوان على الناس أموالهم أو أنفسهم أو أعراضهم أو غير ذلك مما تقوم به حياتهم قياما ضروريا وبدون حق مستقويا بعدده أو عدته أو سلطانه. هذا الأمر هو الذي سحبه كثيرون في القديم والحديث على الردة السلمية الفردية جهلا فكان خلط شنيع ظهرت فيه قيمة من أكبر قيم الإسلام ومحكماته ـ أي لا إكراه في الدين ـ في حالة تسلل أو دعوى كاذبة بالنسخ كما إدعوا نسخ آية السيف التي لم يتفقوا عليها هي أصلا لآيات محكمات تعنى بالدعوة بالحسنى والصبر والحوار والجدال الأحسن وغير ذلك.

الذي قام به الصحابة الكرام بقيادة أبي بكر عليهم الرضوان جميعا هو تنفيذ حد الحرابة على مرتدي اليمامة ليس بسبب كفرهم بفرضية الزكاة ولم يكفروا بها ولكن بسبب إعلانهم الحرابة ضد الأمة ممثلة في دولتها يومها واي حرابة أشد على الأمة من منع فقرائها ومصارفها الثمانية المعروفة حقها في مال الناس بحسب ما حددته الشريعة وليس قانونا بشريا يمكن أن يبحث فيه عن العيوب؟

كان يمكن أن ينأى التدوين التراثي بنفسه عن الخلط الشنيع حتى يقع التمييز بين الحرابة وحدها ـ وهو مغلظ جدا ومشدد جدا ليكون عدلا مقسطا مع المفسدين في الأرض وأكرم بالإسلام دين الإنسان أنه رتب أغلظ عقوبة على من يتعدى على حقوق الإنسان ـ وبين الردة.

ليس في الإسلام ضد الردة الفردية السلمية حد :

لا يحتاج المرء إلى دليل إذ قال الأصوليون : ليس على النافي دليل. إنما يطالب بالدليل من يخرج على أصل العفو الذي سموه قديما : براءة الذمة .. فيقرر خلاف ذلك. الذي سنّ حد الحرابة بكل ذلك التغليظ والقسوة جزاء وفاقا كان يمكن له أن يسن ما هو أخف من ذلك أي ما سمي جهلا بحد الردة. حد الردة الفردية السلمية لا يعني سوى أن هذا الكتاب متناقض تناقضا صارخا إذ هو يعلن في إحدى أكبر محكماته الواردة مباشرة بعد بيان من هو الله سبحانه ـ وأكرم بها من منزلة لها إعتبارها ورسالتها ـ أي : لا إكراه في الدين ومعلوم أنها نزلت في مجموعة من الأنصار ظلوا يدعون أبناءهم المتنصرين قبل الإسلام بالحسنى طويلا فلما يئسوا منهم أكرهوهم على الإسلام إكراه والد رؤوف حنون رؤوم على فلذة كبده التي يراها تغيب في جهلوت الكفر يوما من بعد يوم .. ورغم ذلك نهوا عن إكراههم من بعد ما أخفقت مساعي الحوار أن يدعوا المسيحية ويعتنقوا الإسلام. لا أجد في هذا الدين تكريما للإنسان أكبر من هذا الموقع.

النبي نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يعاقب مرتدا :

أورد البخاري عن جابر عليه الرضوان أن إعرابيا بايعه ثم أصابه وعك بالمدينة فطلب منه إقالته من بيعته وظل يلح عليه أياما والنبي عليه الصلاة والسلام لا يوافقه على ذلك رحمة به ورأفة به فلما يئس منه خرج من المدينة مرتدا عن الإسلام ولما علم به عليه الصلاة والسلام قال للصحابة : إن المدينة كالكير تنفي خبثها وتنصع طيبها. لم لم يقلته مادام له من ربه حد في الردة؟ لم لم يحبسه إستتابة كما جاء في التراث؟

أصل الردة في القرآن الكريم :

من يتتبع مواضع الردة في القرآن الكريم وهي كثيرة عدا الآيتين المعروفتين واللتان لم تحددا حدا وهذا هو معنى أن البيان لا يتأخر عن وقت الحاجة .. يدرك بيسر أن أصل الردة في الإسلام هي أنها وسيلة خبيثة يلجأ إليها الإسرائيليون بأذرع النفاق التي يتقاسمون معها الأدوار في خلخلة الدين الجديد وذلك لأجل إشاعة أن هذا الدين لا يصلح بالتجربة إذ يعتنقه المرء ثم يكتشف أنه لا يلائمه فيخرج عنه ومثل هذا العمل كان خطيرا وبالغ الخطورة في تلك الأيام وخاصة من رجال هم من عداد المؤمنين حالة مدنية إذ أن المنافقين كانوا يعدون مؤمنين ولا يعلمهم إلا قليل أنهم منافقون. رسالة خبيثة لجؤوا إليها لتخذيل الناس عن الدين وبلبلة الصف وتصريم الوحدة. تلك هي قصة الردة في الإسلام أي أنها وسيلة حربية من أهل النفاق الذين هم ذراع الإسرائيليين. لم يلجأ إلى هذه الطريقة الخبيثة عربي واحد لأن العرب قوم شهامة وكرامة ومروءة. أليس حريا بالشباب المتدين أن يعلم هذا حتى لا يملأ روعه أن الردة مشكلة إسلامية داخلية وإنما هي مشكلة خارجية. أليس اليوم يرتد الناس عن المسيحية وغيرها إلى الإسلام. لم تقعون في الفخ الغربي فتتكفؤون عن دراسة الردة وحدها المزعوم وكأن الإسلام يشهد ردة عنه وليس إليه. أليس الخطة الغربية هي التشكيك في قيمة الحريات الفردية في الإسلام؟

الفصل التاسع : فقه الأسباب فريضة دينية

مما تلبس بنا لعوامل تاريخية وسياسية عريقة أن نقصر الفقه على العبادات حتى تضخمت مدونتنا الفقهية وتورم فقهنا التعبدي فكانت الأسئلة الفارغة من مثل : أرأيت لو.. وبدل الإجتهاد حل الإجترار. أهملنا الفقه الإجتماعي والإقتصادي والسياسي أي الفقه العمراني أو الحضاري بالتعبير المعاصر. ولذلك تخلفنا لأننا قصرنا النظر الفقهي على جانب واحد من جوانب الإسلام. إذا كان مصدر الفقه هو القرآن الكريم فإن من يدرس القرآن الكريم ـ لا بل يقرأه مرة واحدة ـ يدرك بيسر أنه ممتلئ بالفقه العام ومنه فقه السنن والأسباب وفقه النهضة وفقه التقهقر وفقه الغلبة وفقه السقوط. اليوم عندما ترشحت بعض الحركات الإسلامية إلى القيادة في الحكومة العربية وجدت نفسها عفوا من أدبيات فقهية عمرانية سياسية ومالية ترشد عملها إلا قليلا ومازال ريب كبير وغبش أكبر منه يستبد بكثير من المسلمين ـ بل ربما بأكثرهم ـ أن الإسلام والفقه السياسي لا علاقة بينهما. من يطلع على كتابات الغربيين يدرك أن ذلك الريب مضاعف. أنى للدعوة الإسلامية أن تتقدم في مثل هذه المناخات؟

ما هو فقه الأسباب؟

السبب ـ جمع أسباب ـ هو أصل الشيء أو جذره أو علته أو غير ذلك من إختلاف الحد بحسب الحقل والمشتغل فيه. يكون السبب في القرآن سبيلا إلى بلوغ مرام ما. " وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا ". أي أن ذي القرنين ما كان له أن يتأهل لحماية الناس من يأجوج ومأجوج وقبل ذلك من مشاكل أخرى إلا بعد أن تمكن من الأسباب التي أخبرنا عنها أنه إتبعها ولم تكن في رأسه مجرد وعي مترف.

علمنا الله سبحانه أن الأمور كلها تدبر بأسباب وسنن وقوانين فلا ينشأ شيء أبدا طرا مطلقا إلا بسبب موجد وبسنة قائمة وهو ما نسميه اليوم نضوج شروط التغيير أو إجتماع أسباب الإصلاح وهي التي أسماها مالك بن نبي شروط النهضة.

فقه الأسباب هو العلم بأن التغيير في كل حقل ومستوى لا يكون إلا بجذوة أولى محركة.

أمثلة من القرآن الكريم :

1- لما كتب سبحانه على مريم البتول أن تحمل بعيسى من دون مسيس وجاءها المخاض إلى جذع النخلة أمرها بأن تهز إليها بذلك الجذع. الهز لغة التحريك القوي. أليس هو الذي كتب عليها ذلك؟ لم يحملها مسؤولية الهز وهي إمرأة صغيرة خائفة ضعيفة وفي حال مخاض؟ أليس من الأنسب أن يسقط عليها الرطب من دون جهد منها سيما في حالة ضعف بدني وحتى نفسيا تكن خوفا من قالة الناس؟ ليس هناك من جواب أقرب إلينا من أنه يريد أن يعلمنا نحن اليوم ـ وليس هي ـ أن السبب لا بد منه حتى في حالات المعجزات الإلهية. ميلاد عيسى عليه السلام معجزة إلهية ورغم ذلك لا تعفى أمه من الأخذ بالسبب. هل يصدق عاقل أن هزة مريم النخلة هي التي كانت سببا في سقوط الرطب؟ أبدا؟. لم؟ لأن مريم لا تحيط بذراعيها بالجذع مجرد إحاطة فأنى لها أن تكون قادرة على هزه بما يخلخله ويجعل رطبه يسقط. رسالته إلينا هي : لن تنالوا مني شيئا ـ لا رزقا ولا هداية ـ إلا إذا أطعتم أمري فتلبستم بالسبب وصدرت منكم حركة. لا عليكم في قوة الحركة عند العجز. الذي أريده منكم هو عدم الإستسلام لليأس أو القنوط أو الدعة والسكينة. أنا الذي تبارك وأنا من ينزل البركة على جهد صغير منكم ليكون كبيرا.

2 - لما أنجى سبحانه عبده موسى من بطش فرعون أمره وهو يضع أول قدميه في البحر الأحمر أن يضرب بعصاه البحر. هل يصدق عاقل أن ضربة عصا موسى هي التي شقت البحر فكان كل فرق كالطود العظيم؟ أبدا. لم؟ لأنه أمر معجز. السؤال نفسه يتكرر : لم أمر موسى بتلك الحركة التي لن تجعل البحر ينشق؟ والجواب نفسه : لأنه يريد أن يعلمنا نحن اليوم أن السبب لا بد منه حتى في المعجزة الإلهية. أجل. حتى في المعجزة الإلهية لا بد من حركة وسبب من لدن الإنسان. فما بالك إذا كان الأمر متعلقا بعمارة أرض أو نكاح أو عمل أو علم ولا علاقة له بالمعجزات؟ يكون هنا إستخدام السبب وإتخاذ الحركة أولى وأحرى.

3 - الأمر نفسه مع النبي نفسه أي موسى عليه السلام وهو يستسقي لقومه إذ أمر بأن يضرب بعصاه الحجر فلما ضرب نبع الماء وشربوا. الأسئلة نفسها والأجوبة نفسها. والغرض منه سبحانه هو تأكيد سنة السبب وقانون الرزق وناموس الحركة فلا رزق ولا هداية إلا بسبب من لدن الإنسان. حتى النبي ـ بل حتى الكليم وحتى الخليل ـ لا يعفى من ذلك. أليس من باب أولى وأحرى ألا يعفى من ذلك الإنسان؟ إذا كان السبب لا بد منه حتى في المعجزة الإلهية ولا بد منه حتى مع النبي الكليم والرسول الخليل فمن باب أولى وأحرى أن يكون مع الإنسان في عمارته الأرض.

4 - حتى في طلب الهداية يكون النظام نفسه أي أن الذي يريد أن يهتدي ويؤمن فما عليه سوى أن ينظر في الكون ويتأمل في التاريخ ويتدبر الحدث القريب والبعيد ولذلك إمتلأ الكتاب العزيز إمتلاء عجيبا بالدعوة إلى النظر والتفكر والتدبر والتأمل في الكون وفي التاريخ الذي إمتلأ به القرآن الكريم حتى الثلث وأزيد. أليس النظر والتدبر والتفكر أسبابا؟ هي أسباب غير مرادة لذاتها بل مرادة لغيرها وغيرها هو إقتناء إيمان لا ينضب وعقيدة لا تنهزم وتصور لا ينثني. حتى الهداية إذن لها أسباب.

خلاصات :

1- الحقيقة أن أصدق كلمة في حالنا هي قالة الشاعر : كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول. إذ أن كتابنا ـ الذي هو دستور حياتنا ـ يمتلأ بقوانين العمارة وأسباب النهضة إمتلاء عجيبا (أزيد من أربعين قصة تحتل أكثر من ثلث القرآن الكريم كله ومثلها أمثالا ومثل ذلك كله قصة وتاريخا أي أن أكثر من ثلثي القرآن الكريم يتحدث عن الدنيا وليس عن الدين) .. ولكن حالنا هي أسوأ حال. ذلك هو معنى أن الدين سلاح ذو حدين فهو كالدواء ـ بل هو دواء فكري ـ فإما يتناول كما أمر الطبيب فيكون نافعا أو كما إشتهت أهواؤنا حتى العلمية منها فيكون ضارا.

2 - هذا الطاقم الكبير العظيم من الأسباب والسنن هو طاقم محايد إذ لما أخذ به غيرنا من غير المسلمين تقدموا وذلك هو معنى قوله سبحانه في سورة الإسراء : كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك. أي لا نضن بأسباب الحياة وسنن النهضة على أحد من عبادنا ما دام يأخذ بها.

3 - نبذنا نحن ذلك في عهود الإنحطاط السحيقة وإستبدلنا بها أهواء من عندنا إذ لجأ بعضنا إلى الرؤى المنامية يتطفل على الغيب ويصدقه الناس ولجأ فريق آخر إلى الدعاء فحسب وهو دعاء صادق ضارع بكاء ويتردد دون إنقطاع في الأرض ولكن هل تغير الحال؟ أبدا؟ لم؟ لأن الله أمرنا بالعمل أولا ثم بالدعاء. ولجأ آخرون إلى التطير كما كان يفعل المشركون في الجاهلية. ما تبدلت عدا صور المتطير به. كان طيرا وحصى فاصبح لونا أو يوما أو إنسانا أو طقسا.

4 - عنوان قانون الأسباب الذي ذكره القرآن الكريم مرتين هو : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ليس هناك معجزات إلهية تتنزل علينا ولن تتنزل أبدا مطلقا. وليس هناك نبوات بعد النبوة الخاتمة. وليس هناك قوى أخرى من الجن أو من غيرهم يمكن لهم أن يغيروا من حالنا السيء إلى حال أقل سوء عدا نحن أنفسنا. هذا تصريح صحيح محكم.

ذلك هو لب عقيدة القضاء والقدر. عقيدة القضاء والقدر رسالتها كرامة الإنسان فلا هو ريشة في مهب الريح مفعول به لا حول له ولا قوة ولا هو إله ولا عشر معشار إله له تدبير مع المدبر الحكيم الخبير سبحانه. هو بين ذينك : سيد مستخلف مستأمن مسؤول مكلف مكرم معلم محرر عاقل في مملكة ربه. إن أخذ بأسباب القوة تقوى وإن أخذ بأسباب الضعف ضعف.

الفصل العاشر : السؤال أسرع سبيل إلى اليقين

من يدرس القرآن الكريم يدرك بيسر أنه كتاب يعتمد الحوار بما هو سؤال وجواب وكرّ وفرّ بينهما حتى إنه إمتلأ بقوله : قل.. التي تجاوزت

ثلاثمائة مرة ومثلها : قال ويقول ويقولون وغير ذلك. ذلك يعني أن النظم القرآني نظم حواري يتوخى بسط حجج الناس من مشركين وأهل كتاب وغيرهم ثم يحللها ويناقشها ويكرّ عليها مبينا جوابه وبديله. لا ريب في أن هذا المنهج المتوخى من القرآن الكريم يريد به الله سبحانه أن يعلمنا فن الحوار ومهارة إدارة الحديث برهانا ببرهان وكلمة بكلمة وليس بالعنف والإكراه والسيف تحسم التباينات.

السؤال في القرآن الكريم.

1 - هناك ضرب من الأسئلة العادية بنوع ما وقد تكرر قوله : يسألونك أو يسألك .. أزيد من عشر مرات. يسألونك عن الأهلة ـ يسألونك عن الشهر الحرام ـ يسألونك عن المحيض ـ يسألونك عن اليتامى ـ يسألونك ماذا ينفقون ـ يسألونك عن الساعة إلى آخر ذلك.

2 - وهناك ضرب آخر من الأسئلة الخطيرة والكبيرة وهي أسئلة فوق العادية وهذه هي موضع هذا الفصل من فصول ترشيد التفكير الديني أي قيمة السؤال فوق العادي في الوصول بسرعة وأمن إلى اليقين.

أمثلة حية :

1 ـ أخطر سؤال هو سؤال موسى عليه السلام : رب أرني أنظر إليك.

لا ريب أن مشكلتنا مع القرآن الكريم هي أننا نتلوه تلاوة تقليدية لا تثير فينا شيئا فلا نهتم بما لا نعي بل نمر مرورا ليس هو مرور الكرام قطعا لأن الكريم يهتم. القرآن الكريم يفاجؤنا ويباغتنا ويأتي إلينا بما لم نألفه ـ من مثل هذا السؤال ـ ولكن لا نلقي لذلك بالا.

لو توقف تالي القرآن الكريم عند هذا السؤال لقال في نفسه : أنى لنبي رسول كليم من أولي العزم أن يطلب من ربه أن يريه نفسه .. لو توقف تالي القرآن الكريم طارحا هذا السؤال لتبين له الأمر أو لفتح لنفسه بابا من أبواب العلم ليظل به مشغولا.

لا شك أن الدافع الذي جعل موسى عليه السلام يطلب من ربه أن يريه نفسه هو ما وجد من لذة لا توصف ومتعة لا تضاهى من أثر سماعه له مباشرة سبحانه. وقديما قالوا : من ذاق إشتاق. أجل. من ذاق طعم شيء يشتهيه إشتاق إليه.

المحيّر في السؤال هو أن الله سبحانه رحب بالسؤال ولم يعاتبه عليه وكان يمكن له أن يعاتبه كما عاتب أنبياء آخرين إذ عوتب محمد نفسه عليه الصلاة والسلام في زهاء خمسة مواضع والعتاب شرف إذ المعاتب هو المالك سبحانه والمعاتب هو عبده حتى لو كان نبيا رسولا كليما أو غير كليم.

لم يصدر عنه سبحانه أي شيء يوحي أنه لا يرحب بهذا السؤال الكبير الخطير الذي نعده نحن اليوم وقاحة ولكن لا نتوقف عنده لنعده كذلك ولو سأله أي واحد منا لعد وقاحة. السؤال ربما يسأل لاوّل مرة في التاريخ والأرض. كل ما في الأمر أن الله سبحانه أخبر عبده موسى أن رؤيته له غير ممكنة بسبب تكوينه وليس لأي سبب آخر. قال له : لن تراني ولكن إنظر إلى الجبل فإن إستقر مكانه فسوف تراني. لن تراني في هذه الدنيا بعينيك هاتين. ورغم أنه أخبره أنه لن يراه لم يتوقف الحديث بينهما بل دعاه إلى محاولة إرضاء له وثوابا على هذا السؤال الكبير الخطير العظيم الذي يحبه الله سبحانه. وما إن تجلى الله سبحانه للجبل ـ أي رأى الجبل ربه ـ لم يتحمل الجبل ذلك فخر مدكوكا مهدودا وخر في إثره موسى عليه السلام بمثل ذلك. ذاك لم يتحمل رؤية ربه وهذا لم يتحمل خر جبل يهوي.

ثمرة هذا السؤال الذي رحب به سبحانه وواصل فيه رغم أنه يعلم أنه لن يؤدي إلى الرؤية هي أن موسى عليه السلام أثيب بسبب سؤاله الكبير الخطير العظيم يقينا زاده يقينا وأي يقين أن يرى المرء بأم عينيه جبلا ينهد في أقل من طرفة عين وهو يعلم أن سبب هده هو أنه رأى ربه إذ قال له في البدء : فإن إستقر مكانه .. تغذية باليقين صوتا وصورة ولحما ودما.

2 ـ سؤال خطير هو الآخر من إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى.

هذا السؤال من إبراهيم الخليل عليه السلام أقل خطورة وحجما من سؤال موسى الكليم عليه السلام. ولكنه بالنسبة لنا نحن اليوم يظل سؤالا وقحا إذ لم نألف أن يسأل إمرئ ربه أن يدعه يراه رأي العين أو أن يريه كيف يحيى الموتى. أول ما يواجه به صاحب هذا السؤال منا نحن اليوم هو أنك هرطيق زنديق منافق مرتد وهذا القاموس الأسود مليئ بمثل هذا.

مرة أخرى رحب سبحانه بسؤال خليله وواصل الحديث معه إذ قال له : أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي. السياق يريد أن يحقننا بأمر مهم عنوانه أننا مؤمنون ولكن هل إطمأنت قلوبنا بالإيمان؟ تحدث عن المؤمنين وتحدث عن المؤمنين حقا وتحدث عمن حصر فيهم الإيمان إذ قال زهاء ثلاث مرات : إنما المؤمنون ...

قرأنا أن الإيمان تصديق وطمأنينة قلب وحب وعمل وغير ذلك. السؤال هو: إذا كان نبي رسول خليل للرحمان في رفعة إبراهيم عليه السلام يحتاج إلى طمأنينة قلب فكيف بنا نحن اليوم؟ ألسنا بأحوج منه إلى ذلك بسنوات ضوئية كما يقولون؟

لذلك أخبرنا عن الإيمان وعن اليقين وعن حق اليقين وعين اليقين وغير ذلك من درجات التصديق والإيمان.

رحب سبحانه بالسؤال وإستجاب له وقال له : خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم إجعل على كل جبل منهن جزء ثم أدعهن يأتينك سعيا.. فعل إبراهيم كل ذلك وشهد بنفسه لحما ودما كيف يحيي الله الموتى. هل يعني ذلك ـ كما نظن نحن اليوم هرفا مهروفا ـ أن إبراهيم كان يشكو من ضعف فادح في الإيمان لذلك إحتاج إلى دليل محسوس ملموس؟ نحن إذن أشد منه يقينا لأننا نؤمن بإحياء الله الموتى دون برهان حي.

وليس هذا مقصورا على الأنبياء بل إستجاب سبحانه لرجل آخر من بني إسرائيل إذ قال : انى يحيي هذه الله بعد موتها؟ إذ مر على قرية ـ أي مدينة ـ خاوية على عروشها بعدما كانت حاضرة عمران وزينة فإستبعد وقد هاله مشهد الدمار والموات أن يبعث أهلها أحياء. هذا لم يسأل أصلا بل أماته سبحانه مائة عام وبعثه بعدها وأراه بأم عينيه لحما ودما وعصبا كيف حيي هو وكيف حيي حماره وكيف حفظ سبحانه له طعامه وشرابه فلم يتسنه ولم يتغير إذ وفر له سبحانه ثلاجة خاصة به لا تراها العين وصرف عن ذلك الطعام هامة الأرض ودابتها مائة عام كاملات. أليست هذا مشهد بعث صوتا وصورة ينقل إلينا نحن اليوم لعلنا نيقن حتى ونحن مؤمنون مصدقون؟

خلاصات :

1 - الخلاصة العظمى من هذه الأسئلة وخاصة السؤال الموسوي والإبراهيمي هي أن الله سبحانه يحب السائل وخاصة السائل فوق العادي أي السائل الذي لا يتردد أن يسأل ربه أي سؤال لا يألف الناس طرحه تعففا وتأثما وكبرا. لو كانت هذه الأسئلة الكبيرة الخطيرة مكروهة أو غير مرحب بها ما كان الوحي ليسوقها مساق قدوة وإسوة.

2 - خلاصة أخرى عظمى عنوانها أن مفتاح اليقين ـ وليس مجرد الإيمان ـ هو السؤال الكبير الخطير غير المألوف. دعك من الناس إذ أن الإيمان قضية فردية شخصية خاصة بين العبد وربه ولسنا هنا بصدد قضية دنيوية لا بد لنا فيها من إجراء إنتخابات ديمقراطية أو تحكيم الأغلبية.

3 - الأسئلة الكبيرة والخطيرة تحتملها العقول الكبيرة وتتبجس بها القلوب المفعمة أملا ويقينا ورجاء. العقول التي تكون فيها القضايا العقدية العظمى مقدمة كبرى ومقدسة وليس من سقط الإهتمام.

4 - أين الله وأين عدل الله ونظائر ذلك مما يطرح من لدن الناس بغض الناس عن دينهم ويقينهم ما يجب أن نستنكف عنها أو نرمي أهلها بالزندقة والهرطقة أو الردة وعادة ما يستنكف عن التفاعل معها عدا الذي آمن إيمانا تقليديا لا يدري هو نفسه لم آمن. أما الذين إكتسبوا يقينهم عن علم ومعرفة وبحث فإنهم يجدون في هذه المراعي حقولا خصبة يطؤونها لعل الله يهدي بهم من شاء من عباده أو يفيئ بمن شاء منهم إلى دوحات اليقين.

ربما نكون نحن اليوم في زمان إذا أشير إليك ببنان الزندقة والهرطقة فأنت مؤمن بيقين وليس بتقليد.

أنا أسال .. أنا إذن موجود
أنا أسأل .. أنا إذن مؤمن
أنا أسأل ... أنا إذن حي

الفصل الحادي عشر : أركان الأمة الخمسة

كلمة : أركان .. لفظ مستحدث إذ لم يرد بمعناه المستخدم لا في القرآن ولا في السنة. الركن هو الشيء الذي يحتمى به ويلجأ إليه . " أو آوي إلى ركن شديد ". " ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ". ودرج المدونون على صياغات من مثل : أركان الإيمان أو أركان الإسلام.. التعبير النبوي أصح وأدق إذ قال : بني الإسلام على خمس ... الركن غير البناء في الحقيقة. صحيح أنه لا مشاحة في المصطلح وأن العبرة بالمقصد ولكن الأصح من ذلك هو إحسان إختيار اللفظ حرصا على دقة المعنى. لسانا عربيا ليس الركن هو البناء ولا البناء هو الركن.
يشتركان ويختلفان ويتكاملان. لم أبهر بشيء في هذا الكتاب العزيز بهري بدقة تراكيبه دقة عجيبة أدهشت أرباب القحاحة. هذا كتاب يعلمك الأدب وفنونه بمثل ما يعلمك التشريع فمن جفا عن ذلك فلن يتذوق طعما أشهى من العسل المصفى.

<u>للإيمان أركان وللإسلام أركان وللأمة أركان كذلك :</u>

أفضل كلمة : أبنية بدلا من أركان .. ولكن دعنا من هذا الآن. الإيمان فكرة وليس هذا تهوينا منه ولكن رغبة في الإيضاح اللازم والإسلام عمل أو موقف في الحياة. كلاهما لا رصيد له في الحياة عدا إذا ظفرت به أمة من الناس ومن ذا شدد القرآن على قيمة الأمة إذ هي الحقل البشري العملي الميداني الذي يستقبل ذلك الإيمان وذاك الإسلام فيحولهما إلى حياة فيها السعادة والرغد. الإنسان هو مستودع الإيمان وحاضن الإسلام. ولذلك لم يعرف القرآن الكريم الإيمان الذي هو مخ رسالته ولو مرة واحدة وظل يشيد بآثاره في الحياة وفي النفس.
أركان الحياة هي :

1 ـ الإنسان
2 ـ الإيمان
3 ـ الإسلام

أي أن الحياة لا يمكن أن تسمى حياة وليس معيشة حتى يتوفر لها الإنسان المؤمن المسلم. الإيمان وحده أو الإسلام لا يبنيان حياة. الإنسان وحده كذلك لا تبنى به حياة.
كان أملي أن تتركب مقرراتنا الدراسية في البيت والبيئات الأخرى من أدناها حتى أعلاها من تعليم تلك الأركان الثلاثة للحياة : أي أركان الأمة وأركان الإيمان وأركان الإسلام وبذلك يلتحق النظري بالعملي ويلتحم التصور بالإنسان فتولد الحياة. فينا زهد عجيب في فقه الإنسان والقرآن الكريم مليء به حتى إنه خصص له سورة مدنية كاملة. القرآن الكريم كتاب الإنسان بكل ما في الكلمة من معان وقيم.

<u>أركان الأمة :</u>

<u>1 ـ العلم.</u>

دليلي على ذلك سورتا القلم والرحمان وكلاهما مكيتان. فخري لا يقاس بفخر عندما علمت أن في الكتاب الهادي سورة كاملة عنوانها القلم. كيف لا وأول كلمة نزلت من السماء إلى الأرض هي كلمة : إقرأ. القراءة هي الجمع. إسم السورة يحيلك إلى موضوعها مباشرة ويجعلك في إتجاه حقلها بالضرورة. ولذلك كان الإسم موقوفا وليس إجتهادا. عندما أراد سبحانه أن يرفع العلم بما هو معرفة وإجتهاد وبحث ودراسة وصناعة فكرية إلى أعلى المستويات خصص له سورة تحمل إسمه الأفضل والأكبر بعد إسمه العلم أي الرحمان. الرحمان إسم خاص به وبه سمى سورة هي سورة العلم في الحقيقة إذ بدأها بقوله : الرحمان علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. والرسالة هي : لا قيمة للإنسان المخلوق إلا بقيمة العلم الذي معه فهو رصيده وإلا فإن الخلق سابق عن التعليم بوجهة ما وليس مطلقا. لست في حاجة إلى تأكيد العلم ركنا أعظم من أركان الأمة ولست بحاجة لأدلل على ذلك من النقل أصلا والواقع يخبرنا أن أهل العلم تقدموا وأن أهل الجهل تخلفوا. والتاريخ مثل ذلك.

2 - الصف.

لنا في الكتاب العزيز سورة مدنية تحمل إسم الصف والرسالة هي أن الأمة الإسلامية لا بد أن تكون ذات صف واحد مهما تنوعت وتعددت وإختلفت وهذه إرادته هو سبحانه. هذا أمر كذلك لا يحتاج فيه المرء إلى نقل إذ أنه أمر عقلي مجرب فمن وحد صفه اليوم تقدم وغلب ومن تفرق صفه إنهزم وإندحر. عبر عنه في مواضع أخرى بالإعتصام والوحدة وغير ذلك. المقصود بالصف هو أحادية الرأس القيادي وليس تعدد الرؤوس القيادية لأن الكون منتظم ضمن شبكة من السنن القهارة منها أنه لا يسير سائر ولا يطير طائر إلا برأس واحد أما تعدد الرؤوس فهو المهلكة والمحرقة. تتعدد الأجنحة والأطراف أما الرأس فإما واحد أو هو الغرق.

3 - الشورى لحسم التعدد.

لنا كذلك في الكتاب العزيز سورة مكية عنوانها الشورى والرسالة هي أن الله عندما خلقكم مختلفين متعددين متنوعين فإنه يريد أن يبتليكم بذلك هل توظفون ذلك لتوحيده فهو الذي لا يتعدد ولا يختلف ولا يتنوع وهل توظفون ذلك لحسمه بالحوار صونا للصف الواحد أن تنخره الإختلافات ولضمان جرعات لا بد منها لكرامة الإنسان ولحريته. تلك هي فلسفة الشورى في الشريعة الإسلام أي ضمان الصف الواحد وفي الآن نفسه تعزيرها بإنسان حر كريم يقول رأيه في كل شيء متى شاء وكيفما شاء دون تهيب من حاكم أو قوي أو غني بل يعد ذلك فريضة من فرائض حياته. نجح الغربيون في هذا وفشل العرب والمسلمون فشلا ذريعا ومنذ العقود الأولى من موته عليه الصلاة والسلام. قالة لا أتفق معها البتة : تاريخنا مفترى عليه. لا. تاريخنا غير مفترى عليه وإذا كان مفترى عليه فليس المفتري سوانا.

4 - الحديد.

لنا سورة كذلك عنوانها الحديد ورسالتها أن الأمة لا يمكن أن تظل مهابة الجانب إلا بالحديد وهو رمز القوة العسكرية ولا يمكن أن تظل قوية تعمر الأرض إلا بالحديد وهو القوة العمرانية السلمية ولا يمكن أن تتهيأ لأداء الشهادة على الناس إلا بالحديد وهو القوة التي تدحر المعتدي وتنصر المستضعف. حدد مقصد الحديد بإقامة القسط ورسالة الأمة هي إقامة القسط فيها وفيما يليها. كل ذلك وسيلته الحديد. وإلا فإني لا أفهم البتة كيف يحتوي القرآن الكريم كتاب الهدى والوعظ والتربية سورة عنوانها الحديد إذ الحديد مادة غليظة جافة لا تتساوق مع رسالته. عرف الغربيون هذا فصنعوا الحديد حضارة وصدروها إلينا وأصل المادة من أرضنا بمقايضات مجحفة وصنعوه أسلحة فتاكة وقصفونا بها. لكم أفخر وأبكي معا. أفخر بإحتواء كتابي الحديد رمز القوة وأبكي عندما أعلم أن الحديد صناعة غربية لا وجود لها في كتبهم وبها يحتلون أرضنا ويقصفون عمارتنا وإنساننا.

5 - الإصلاح.

المقصود بالإصلاح هو الحيلولة دون سقوط صف الأمة بسبب الحريات الفردية أو الجماعية. هي إشكالية فلسفية في الحقيقة عنوانها علاقة الحرية بالمسؤولية أو الفردية بالجماعية. عالجها الغرب المعاصر أولا علاجا دينيا إذ أعدم الحرية الفردية وأعلى من شأن المسؤولية الجماعية وكان ذلك في المناخات الدينية الغربية قبل ظهور الثورة ضد الدين كما كان ذلك من بعد ذلك في التجربة الشيوعية الماركسية. ثم عالجها معالجة عقلانية إذ حاول إدراجهما معا ـ الحرية والمسؤولية ـ في بوتقة واحدة فكانت الدولة الغربية المعاصرة ولكن يبدو ـ والله أعلم ـ أن معالجة الحرية الفردية ستطغى ولن يكون طغيانها على حساب الدولة التي تضمن المسؤولية الجماعية ولكن بدا طغيانها جليا واضحا معززا بالأرقام والصيحات أصلا في الأسرة. دعنا من هذا الآن.
الإصلاح فقرة قرآنية راسخة بل لك أن تقول أن سورة العصر نفسها هي سورة الإصلاح إذ رهنت الفلاح وهو ضد الخسران في العمل الجماعي الذي يؤمّن الإصلاح تواصيا بالحق وتواصيا بالصبر من بعد أديم الإيمان والعمل الصالح المتفق عليه وليس عليه جدال.
حفل الإسلام بالإصلاح أن تنقض عرى وحدة الأمة بإسم الحريات الفردية والفئوية والمذهبية وغيرها حفلا كبير إذ أنه دعا الأمة جمعاء قاطبة إلى قتال الفئة الباغية التي لا تخضع للإصلاح ولو كان ذلك الإصلاح يخصم بعضا من حقها. ورد ذلك في سورة الحجرات.
حرصه على الإصلاح نابع من كون الإنسان وهو يعالج الحرية مع المسؤولية قد ينزلق إلى تغليب الحرية على المسؤولية فينشق المجتمع وتندك الأمة أو تغليب المسؤولية على الحرية فيهان الإنسان وتداس كرامته وبذلك تتعطل إمكانيات العمارة والعبادة وإقامة العدل أي رسالته.

خلاصات :

1 - يؤلمني ألا يتعلم الناشئة في محاضنهم الأولى أركان الأمة التي لا بد منها لقيام الأمة. أما الإستغناء عن ذلك بدعوى تعليمهم أركان الإيمان وأركان الإسلام فحسب فهذا جهل لأن كليهما فكرة لا رصيد لها في الواقع إلا بالإنسان. أظن أن غياب أركان الأمة إهتماما وتعليما وتفعيلا مسؤول عن جزء مهم من تخلفنا وإنحدارنا.

2 - أركان الإيمان والإسلام تعلمنا النظرية وأركان الأمة تعلمنا التطبيق. أركان الإيمان خاصة بالإنسان الفرد وأركان الإسلام كذلك مع تصرف صغير. أما أركان الأمة فهي تعلمنا الإهتمام بما يصلح الأمة ويقويها أو يضعفها. لست أجد أن مكان الأمة في الإسلام صغير أو مؤخر حتى نعزف عن هذا.

3 - ترجم الأصوليون لذلك بلسان آخر إذ عدوا المصالح الضرورية والمقاصد الكلية هي الإنسان حفظا أو رعاية لنفسه أي حياته وماله وعقله ودينه وعرضه ونسله وغير ذلك. ولكن الفقهاء لم يترجموا ذلك. لازلت أؤمن أن التدوين مع حسناته جلب سيئات كثيرة.

4 - لا قيام للأمة نقلا وعقلا إلا :

ـ بإيمان مصنعه العلم ومخبره البحث ولحمته الإجتهاد نظرا في الكون.
ـ بصف واحد يكون أكبر عناوين القوة.
ـ تشاور وتراض وتحاور لحسم الخلافات بالحوار والحسم ليس الإزالة بل التوظيف الحسن.
ـ بحديد يضمن القوة الحضارية لرغد العيش والقوة العسكرية لأمن الذئاب ونصرة المستضعفين من غيرنا.
ـ بحركة إصلاحية تكون كالملح في الطعام أو تضمن المناعة الذاتية الداخلية بلسان الأطباء.

5 - العجيب أن كل تلك الأركان ـ أركان الأمة ـ مذكورة في القرآن الكريم بأسماء سور:

ـ القلم للعلم والعلم هو الذي ينشئ الإيمان وليس التقليد أو الجهل أو الإتباع الأعمى.
ـ الصف
ـ الشورى
ـ الحديد
ـ العصر أو الحجرات لركن الإصلاح

الفصل الثاني عشر : الإسلام دين متشدد في حقوق الإنسان

نبتت فينا نابتة خبيثة عنوانها أن كل قيمة يتغنى بها الآخر ما ينبغي لنا سوى هجائها لأنها صدرت عنه وليس عنا. خطة خبيثة وقعنا في شراكها إذ عندما يتغنى الغرب بحقوق الإنسان ـ أعلم أن جزء كبيرا منه نفاقا ـ يجب علينا أن نحقق المفاصلة لنقول ألا وجود لحقوق الإنسان في الإسلام وقس على ذلك المرأة والطفل والعجوز الشيخ والبيئة. بيسر يقع تجريدنا من قيمنا التي يفخر بها ديننا والسبب هو أن الآخر الذي يقصفنا تغنى بها.
لو كان هذا الإتجاه صحيحا لم أشاد عليه الصلاة والسلام بأمور جدت في الجاهلية وشارك هو من مثل حلف الفضول أو حلف الطيبيين وقال : لو دعيت به في الإسلام لأجبت؟
لو كان هذا الإتجاه صحيحا لم قدم سفيره إلى الحبشة جعفر الطيار الأمور المشتركة بين الإسلام وبين المسيحية أي نبوة عيسى عليه السلام وذكر الأخلاق العامة المشتركة من مثل عدم أكل الميتة والإحسان إلى الجار وغير ذلك؟ لم قدم ذلك وأخر سورة الكافرون؟ ألم يكن يحفظ سورة الكافرون؟ لم إختار من سورة مريم وليس من سورة الكافرون؟
السفهاء اليوم يقولون أنكم تجاملون الغرب وتحابون خطابه وتطلبون وده وتنشدون رضاه.

وفي مقابل ذلك فينا من لا يرى في الإسلام أي تشدد أو تغليظ وفي كل حقل. من يدرس الإسلام يدرك بيسر أن الإسلام متشدد في أمرين كبيرين : الأمر الأول يتشدد فيه ويظل تشدده بينه وبين العبد وهو حقل التوحيد أن تشوبه أي شائبة. الأمر الثاني يتشدد فيه وينشر هذا التشدد بين الناس حتى يستوعبوا رسالته. الأمر الثاني الذي تشدد فيه الإسلام هو حقوق الإنسان ولذلك أحاطها بعقوبات بدنية قاسية مغلظة. هي فعلا عقوبات بدنية قاسية ومغلظة ولكن الأعور ـ أو الأحول حولا فكريا وقيميا لا بدنيا ـ يراها بعين واحدة أي يرى تشددها وقسوتها وغلظتها ولا يرى لم هي كذلك؟. هي كذلك قاسية مغلظة مشددة لأنها تعالج جرائم مغلظة مشددة قاسية تنهب الإنسان وتغصبه في نفسه وحياته وماله وعرضه وأهله ووطنه. ألم تقل العرب قبل الإسلام في حكمة بالغة : القتل أنفى للقتل؟ لم لم يواجهوا بأنهم متشددون وغلاة وقساة وأجلاف لأنهم يقتلون القاتل؟ هل غابت عنهم هذه الكلمات وهم أرباب اللسان؟

لكم صدق القائل : تضيع الحقيقة دوما توسطا وأعتدالا وتوازنا بين غلوين. وكلما نبت هنا غلو قوبل بغلو مثله مساو له في الدرجة مخالف له في الإتجاه كما يقول علماء الإجتماع.

شريعة الإسلام حتى بجانبها الجزائي خير حام لحقوق الإنسان :

لسان عصرنا هو عصر حقوق الإنسان الذي به الأرض تلهج وبه تحتل دول بل تزال من فوق الخارطة وبه تساس الأرض كلها اليوم. شريعة الإسلام لمن يدركها بحق تعالج كل عصر بالتحدي الذي يحمله فإن عالج المسلمون عصرا بغير التحدي الذي يحمله فقد خرجوا من خريطة الزمان والمكان. عصرنا هو عصر حقوق الإنسان وما على العلماء والفقهاء والدعاة والخطباء والكتاب سوى أن ينتبهوا لذلك ويعدوا له عدته الفكرية والقيمية لأن الإسلام رحم ولاد أعشر كلما نبت في عصر تحد تصدى له وما غلب الإسلام يوما أبدا ـ ولن يغلب ـ في أي معركة فكرية ولكنه غلب ويغلب في المعارك العسكرية. يغلب عسكريا ولكنه لا يهزم.

<u>ما هي حقوق الإنسان :</u>

حقوق الإنسان هي حقه في الحياة سليما في بدنه معافى في أطرافه وحقه في العيش الكريم وفي العمل وفي العلم وفي صون عرضه وبيته ووطنه ودينه. حقوق الإنسان هي التي عبر عنها الأصوليون أنها الكليات الخمس العظمى أو الضرورات الكبرى أي : حق الإنسان في نفسه وحياته ودينه وعقله وماله وعرضه ونسله. كلها تدور حول الإنسان إذ تتعلق كلها بالإنسان مادة ومعنى وفردا وأسرة ووطنا. لو كان هؤلاء أحياء يعيشون معنا لما ترددوا في تسميتها حقوق الإنسان وليس الكليات أو الضرورات. ولكن ماتوا ومات معهم لسانهم ورفعنا شعار الموت : ليس في الإمكان أحسن مما كان أو ما ترك الأولون لآخرين شيئا أو غلق باب الإجتهاد.

كيف حمى الإسلام حقوق الإنسان وكيف كان متشددا فيها :

<u>1 ـ حق الحياة :</u>

رتب الإسلام لحماية حق الحياة الإنسانية الموت على الموت أي عقوبة القصاص وهي شريعة عربية لم يستحدثها هو بل أقرها لما فيه من صلاح ونفع. قالت العرب : الموت أنفى للموت. أي من يقتل يقتل وبذا لن يقتل أحد أحدا. وإنما تفوق الإسلام على شريعة العرب بعد أن لونها بلونها وأقرها بأن منح الولي حق العفو وأخذ الدية لعل القاتل يتوب. وبذلك أضاف للإنسان حقا آخر إسمه : حق العفو وإستبدال القصاص بالدية.

<u>2 ـ حق السلامة البدنية :</u>

رتب عليها ما يسمى في الفقه بالأروش أي القصاص الجزئي كما ورد عينا بالعين وأذنا بالأذن وسنا بسن والجروح قصاص وهي كذلك

شريعة يهودية سابقة إستوردها الإسلام لما فيها من صلاحية ونفع. ومنح الإنسان مرة أخرى حق العفو فقال : فمن تصدق به فهو كفارة له.

3 - حق الدين :

رتب حفظا لحق الدين أمورا كثيرة منها نفي الإكراه وليس مجرد النهي عنه. النهي قد ينتهك ولذلك نفاه مطلقا ومن إنتهك النفي تعجل عقوبته وتغلظ آجلا. ليس هناك نظير للإسلام وهو ينهى الصحابة الأنصار أن يكرهوا فلذات أكبادهم على الإسلام وقد إختاروا التنصر. تصور أن الله نفسه الذي خلقك ورزقك فهو يملكك ملكية تامة لا يكرهك عليه فإن عبدته كارها فأنت منافق وتعاقب على ذلك. حفظا لحق الإنسان في الدين لم يرتب على الردة الفردية السلمية التي لا تعرض المجتمع والدين إلى الصرم والهزء شيئا.

4 - حق الوطن :

رتب الإسلام لحق الوطن الجهاد مقاومة ودفعا وفي هذه الحالة فحسب قدم الدين - رأسمال الوطن - على النفس فحرض على قتل النفس والإقدام على الموت وهو شاق " كره لكم " ليكون الوطن بمن فيه من بعد ذلك كريما سعيدا يقرر مصيره دون وصاية أجنبية. نحن لا نفقه إلى اليوم كلمة في سبيل الله. في سبيل الله تعني في سبيل كل سبيل يجعل الإنسان حرا كريما فهي في سبيل الوطن وفي سبيل الإنسان وفي سبيل المجتمع وفي سبيل كل قيمة يأمر الله بها أو لا ينهى عنها على الأقل. وردت الكلمة عامة لتظل عامة حتى عندما تتغير الصور. لو قصرناها على الصورة القديمة يجب أن نقول أنه لا مكان لسبيل الله اليوم. فمن يقاتل في سبيل الوطن فهو يقاتل تحت راية جاهلية وعمية عصبية.

6 - حق المال :

رتب الإسلام عقوبة مغلظة مشددة قاسية على سرقة المال والنهب والسلب والعدوان على أمتعة الناس بكل طريق. هي عقوبة القطع. يجب أن تقتنع أنها عقوبة قاسية وهي فعلا كذلك ولكن القسوة التي تعالج قسوة مثلها أو أشد منها تسمى رحمة عند العقلاء. لا تكن أحول البصيرة أو أعور الفؤاد لترى مشهد القطع وتتجاهل أو تغفل عن مشهد النهب والسلب من لدن جائر يستقوي بجنده أو دولته أو جيشه أو حيلته على أموال المستضعفين. ماذا يأكل الإنسان عندما ينهب ماله؟ يأكلك أنت؟ ترضى أن يظل هو من بعد غنى صاحب اليد السفلى ولا ترضى أن تقطع يد الناهب السالب الذي فعل ذلك تكثرا وعدوانا وليس حاجة إلى أكل أو شرب؟ لولا قداسة الإنسان وقداسة المال في الشريعة الأسلامية لما كان هذا العقاب قاسيا مغلظا مشددا.

7 - حق العقل :

رتب الإسلام حفظا للعقل عدم الإكراه على الدين وحرم السحر لأجل ذلك لأنه يحيل إلى الخزعبلات والأساطير والخرافات فيخلد الناس إليه ويأكل بعضهم مال بعض جورا وعدوانا. كما حرم إحتساء الخمر وكل مسكر لأجل كرامة الإنسان بعقله وقدرته على التفكير وحرض على النظر والتدبر لأجل إنماء العقل وإستمثاره في الخير بل رهن الإيمان على رصيد الإنسان من رساميل النظر والتفكر والتدبر والتأمل في الكون وفي التاريخ. رتب الجلد - تعزيرا لا حدا - على شارب الخمر حفظا لملكة العقل التي يغيب بغيابها الإنسان عن الشهود والشهادة ليظل دابة ترعى وتعلف.

8 - حق العرض :

رتب الإسلام حدا من أقسى الحدود - هو الجلد وليس الرجم - حماية لحق الإنسان في عرضه رجلا كان أو إمرأة . رتب حد ثمانين جلدة على العابث بحق الإنسان في عرضه راميا له بالفاحشة ورتب مائة جلدة على العابث بحق الإنسان في عرضه عندما يزنى. أليس ذلك حفظا لكرامة الإنسان وخاصة المرأة أن تظل ألعوبة أو دمية أو جارية أو بهيمة تقضى منها الشهوات وبها اللذات بمقابل ظهور أو بروز أو مال أو سمعة أو ذكر أو إسم أو عنوان أو أي شيء يجعلها متاعا. أليست المرأة اليوم متاعا رخيصا تستخدم بالتمام والكمال كما يستخدم الرجل في بيته طعما ريحه شهي وفيه السم الزعاف يلتقط به الفئران؟ أليس مهينا للمرأة أن تكون طعما يجلب الزبائن حتى والأمر يتعلق بإشهار موسى حلاقة يستخدمه الرجل وليس المرأة؟ لا تتأفف أو تضجر من قولك أن الشريعة قاسية هنا أي كلما تعلق الأمر بحق من حقوق الإنسان. ذاك هو التصور الصحيح وذلك هو التفكير الأصح. من لا يرضى ذلك يرضى لأمه أن تكون في هذا الموضع المهين أو لأخته أو لزوجه.

9 - حق الأمن :

رتب الإسلام حد الحرابة وهو أشد حد فيه إذ أمر فيه بالقتل أو بالصلب أو بقطع الأطراف بخلاف. لم كل هذا التشدد؟ لحماية حق الناس في الأمن والسلام والعيش المطمئن. كيف نضجر من إنعدام الأمن الذي به نحيا ونعيش ونعمل ونتعلم فإذا جاء الحديث عن حد الحرابة وهذه العقوبات البدنية المشددة المغلظة عددنا ذلك تخلفا ورجعية وظلامية. لنبق إذن في الفوضى والعدوان والإضطراب وكما نقول باللهجة العامية : حوت ياكل حوت وقليل الجهد يموت ". ألم يعد الإسلام الفساد في الأرض حربا ضد الله ورسوله؟ أي أن من ينشئ فسادا - والفساد هو العدوان على حق الإنسان في الحياة والسلامة وغير ذلك - فهو يعاقب في الدنيا عقوبة من حارب الله ورسوله. أي أن العدوان على الإنسان عدوان على رب الإنسان.

خلاصات :

1 - علينا إنجاز خطاب ديني جديد عنوانه أن الإسلام بتشريعاته القاسية جدا والمغلظة المتشددة كلما تعلق الأمر بالإنسان هو خير حام لحقوق الإنسان وهو خير ضامن للأمن الإجتماعي والسلم السياسي والسكينة الزوجية والتعامل مع الآخرين المخالفين. أما عندما نوافق الذين لا يعلمون أن القسوة التي تنفي العدوان على الإنسان هي تشدد في غير محله نكون قد ظلمنا أنفسنا وأسأنا إلى الإسلام نفسه.

2 - التي سماها الإسلام كبائر وهي زهاء مائة يتعلق ثلثاها بالدولة في علاقاتها الخارجية خاصة والباقي منها تتعلق بنا أفرادا وأسرا .. تلك الكبائر التي رتب عليها عقوبات بدنية ومعنوية قاسية مغلظة مشددة هي التي يمكن أن نوفر لها عنوانا أنسب لعصرنا : أي حقوق الإنسان. الوجه المعاصر للكبائر هي حقوق الإنسان. لم لا نخاطب الناس بما يفهمون؟ أليس الرسل مكلفين بذلك " إلا بلسان قومه ليبين لهم ". أليس العلماء ورثة الأنبياء؟ أليسوا هم إذن مكلفين بتجديد في الخطاب بحيث يفهمه الناس ولا عبرة بالمصطلح؟

3 - ألسنا مطالبين بتحري الحكمة ونبذ الصور والأشكال والمباني حرصا على تقديم دعوة إسلامية صحيحة تحتفظ بالمقاصد وتنبذ الأشكال وتقدم إضافة الإسلام إلى الناس. إضافة الإسلام إلى الناس اليوم وهم بالعلم مغرورون وبالقوة مفتونون هي : الإسلام خير ضامن لحقوق الإنسان بكل تشريعاته وقبل ذلك بعقائده وتصوراته. عندها يطمئن الناس إلى الإسلام. أما عندما يرون فيه حملا ثقيلا وعبئا كبيرا على الحضارة والتقدم والنهضة والمرأة والطفل والعلم والمعرفة والإنسان فمن المعقول جدا أن يناصبوه العداء.

الفصل الثالث عشر : أسعار الحسنات مختلفة ومثلها أسعار السيئات فكن تاجرا

ربما يضيق بعض الناس بالقول أن خير طريق لفهم الدين هو فهم الدنيا ولكني وجدت ذلك أيسر طريق وأكثره أمنا إذ أن المشكاة واحدة والقانون واحد والإختلاف بينهما في أمور معلومة. معنى ذلك هو أن أجزية الآخرة ثوابا وعقابا هي أجزية متوافقة مع الأعمال خيرا وشرا. في موضوعنا هذا وجدت أن أعمال الدنيا لها أجور مختلفة فلا تستوي مادة الرياضيات مثلا لدى التلاميذ والطلبة مع مادة الموسيقى سيما في الجذع المشترك. لكل مادة أجرها ولكل جريمة سعرها كذلك في القانون الوضعي. الدين محكوم بالقانون ذاته أي أنه لا يحتفظ بأجر واحد لكل حسنة ولا بعقاب واحد لكل سيئة. فإذا كانت الأجور يوم القيامة مختلفة من عمل لآخر وكانت العقوبات بمثل ذلك من جريمة لأخرى أفليس حريا بالعامل أن يكون تاجرا يفعل كما يفعل تاجر الدنيا بالتمام والكمال ودون حاجة إلى تقعرات كثيرة من المنسوبين إلى الدين والدعوة؟ ألم يحرضنا الإسلام نفسه على التجارة إذ قال : هل أدلكم على تجارة ... أو عندما قال : يرجون تجارة لن تبور .. أو قال عن المنافقين : فما ربحت تجارتهم؟ ذلك يعني أن الإنسان تاجر بالضرورة سوى أنه يشعر بأنه كذلك في الدنيا ولكنه يغفل عن ذلك في التجارة مع الله.
تلك هي الحياة الدينية والدنيوية معا لا تستقيم لأحد إلا بالتجارة سيما في زماننا حيث إشتبكت المصالح وتعددت المنافع ومثلها المفاسد وقصر الزمان كما يقولون وأصبح الناس كلهم فوق البسيطة يلهثون وراء الزمن يغالبونه فيصرعهم.

ما معنى أن تكون تاجرا في الدين ؟

هو أن تكون بمثل ذلك في الدنيا. أي تعرف ما هي الحسنات وما هي أثمانها وتعرف ما هي السيئات وما هي أسعارها ثم تعد نفسك لفعل الحسنة الأكثر سعرا إذ أن فعل كل الحسنات لا يمكن وتتجنب في المقابل أكثر السيئات سعرا حتى لو وقعت في ما دونها سعرا لأن هذا يكفر ذاك. ذلك هو معنى أن تكون تاجرا في الدين مع ربك سبحانه. التجارة في الدين تتطلب ما تتطلبه التجارة في الدنيا أي : رأسمال ينافس في السوق + عامل أو عمال تتعاون معهم + مسك حسابات للربح والخسارة + محاسبة دورية لتعديل ميزان التجارة وتوقي الإفلاس + ذكاء تجاري به تعلم أكثر الأسواق رواجا وأكثرها زبونا إلى آخر ذلك مما يفعله تجار الدنيا بالتمام والكمال.

هل في الإسلام أثمان محددة وأسعار منصوصة ؟

أجل. ذكر القرآن أن سعر الحسنة مطلقا هو عشر أمثالها وهو الحد الأدنى وأكد الحديث النبوي الصحيح ذلك. ذلك هو المعيار الأدنى أو المقياس القاعدي الذي تبنى عليه الحسابات من بعد ذلك. كما ذكر أثمانا من فوق ذلك منها أن الإنفاق في سبيل الله سبحانه يكون سعره سبعمائة ضعف على الأقل إذ أكد أن الزيادة على ذلك ممكنة " والله يضاعف لمن يشاء ".
لم يحدد القرآن الكريم غير ذينك السعرين تحديدا بالنص والعدد نص كما يعلم ذلك طلبة أصول الفقه إلا أن يكون في محل المبالغة والتكثير وليس هنا محلهما.

أعمال خارجة عن نطاق الجدول الرسمي العام :

كما يفعل المؤجرون اليوم ـ ولله المثل الأعلى سبحانه ـ فإن هناك أعمالا لا تخضع للجدول الرسمي العام الذي أثبته الله سبحانه نفسه وكشف عنه. منها : الصبر الذي أخرجه من الحساب العام فقال عنه أن أهله يوفون أجرهم " بغير حساب ". وأكدت السنة أعمالا أخرى من مثل : الجهاد في سبيل الله سبحانه والشهادة في سبيله سبحانه. وكل ذلك على سبيل الذكر وليس الحصر أن يندا هذا الفصل وغرضه الإشارة وليس الحصر.

أكثر الحسنات سعرا :

1 - الإيمان بالله سبحانه إيمانا صحيحا يتحول مع الأيام إلى يقين واليقين ذاته درجات. بعض المتدينين عندما لا يفقهون ذلك يستعجبون أن يبشر عليه الصلاة والسلام من مات على شهادة التوحيد بالجنة مغفورا له ما أتى من عمل حتى لو سرق وزنى. سبب ذلك الإستغراب الذي تقرأه في العيون هو أن فقهنا للإيمان ليس فقها صحيحا لأننا نخلطه مع التصديق وليس الإيمان هو التصديق فحسب لأنك تصدق رجلا عرف بالصدق مثلا. مسألة أخرى نحن لا نفقهها حق الفقه وهي أن الإيمان الذي يتحول إلى يقين فيحيل قلب صاحبه إلى فؤاد معلق بالله وبالآخرة يحول دونه ودون الوقوع في الكبائر ومن وقي الكبائر مبشر في سورة النساء بغفران السيئات. لذلك يظل الإيمان يحتاج دوما إلى أمرين : أولهما أن يقتنى من مظانه وهي الكون والتاريخ وليس الكتب عدا الكتاب الخالد أما إقتناء الإيمان من عقيدة فلان أو فلان على قدر فلان وفلان فهو مضيعة وقت. ثاني الأمرين هو أن يتجدد الإيمان إذ هو رأسمال يتعرض لكل ما يتعرض له أي رأسمال لا يستثمر.

2 - العبادات بصفة عامة وخاصة الصلاة المكتوبة وإنما خصت لأنها الأعسر مواظبة ومحافظة ومداومة إذ هي تغشى المؤمن كل أربع ساعات ونيف على مدار حياته. ولذلك كانت مكفرات لما بينها جميعا من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة ومن رمضان إلى رمضان ومن العمرة إلى العمرة وأن الصدقة ـ ومنها الزكاة ـ تطفئ غضب الرحمان.

3 - حياة القلب الذي يسمى ذكرا. وليس كعبادة الذكر ظلما فينا إذ أننا نجهلها جهلا كبيرا وذلك عندما نظن أن الذكر حركة لسان أو شفتين أو هي كلمات تردد حتى مع حضور القلب ولذلك قال العلماء بحق أن أفضل الذكر القرآن وما ذلك سوى لأنه يحيل إلى أحب ذكر عند الله وهو النظر والتفكر والتدبر والتأمل ومن ذا يكون السؤال والحوار بينك وبين الكون وبينك وبين التاريخ ومن ذا يكون لك الذكر بهذا المعنى الإيجابي سجية وخلقا وتنصهر في الكون العابد. أما عندما يكون الذكر وجبة ككل وجبة من العبادات فلن يحقق مقصده وهو حضور القلب

الذي هو أشبه شيء بمرمى فإن تجهز حارسه حماه وإن غفل عنه طرفة عين وكان الشيطان ماهرا ـ وهو ماهر دوما ـ رماه. أرجع إلى الحديث الصحيح فيه وكيف أنه أفضل من الجهاد والنصر وإنفاق الذهب. الذكر عبادة صامتة وحركة جنان.

4 - الخلق الحسن مع كل الدوائر البشرية وخاصة : الأسرة والرحم والجوار بكل صنوفه. نخطئ كثيرا عندما ندون الخلق مشربا مستقلا من مشارب الدين فنخصص له حقلا كما للعقيدة أو العبادة أو المعاملة. الحقيقة أن الخلق هو إكسير الحياة وماء العبادة فليس هناك عمل عقدي أو تعبدي أو ميداني إلا وهو مفعم بالخلق الطيب فهو خالص وصحيح وإلا فهو نفاق وكذب ورياء. مع الوالدين أولا ومع الزوج والولد ثم مع الرحم الأولى نسبا فالأولى ومن الرحم الصهر ثم مع الجار الأقرب فالأقرب بكل أنواع القرب فإذا إستووا فالحاجة هي معيار القرب. لك أن تعود إلى آية النساء المسماة عندهم بحق آية الحقوق العشرة إذ هي تبدأ بتقرير الإحسان للوالدين ثم تسحب ذلك حتى الجار الجنب والصاحب بالجنب وكثيرا ما يكون هؤلاء غير مسلمين. عنوان الخلق هو : الحلم والأناة.

5 - الإحسان أو العدل مع بقية الدوائر البشرية إذ الإحسان أولى وخاصة مع الضعيف والظالم إلا في حالات عامة تخص الأمة أو ما في مثلها تقدر بقدرها فإن عجزت عن الإحسان وهو أعسر عبادة حقا وفعلا وصدقا فالعدل لا تنازل عنه إذ أن التنازل عنه يعني الظلم والكيل صاعا بصاعين كما تقول جاهلية العرب الغابرة والحاضرة. عماد ذلك هو البشرية وليس الإنسانية أي أن الناس كلهم لك في الخلق نظير كما قال الإمام علي. عدا المحارب فيعالج بما هو له أهل. وفي حربه كذلك خلق إسلامي عظيم.

أكثر السيئات وزرا :

1 - الشرك بالله سبحانه سيما الشرك الحقيقي الأعظم والشرك ليس صورة بل خلجة قلب ولك أن تمتحن نفسك بنفسك فإذا ذكر الله فوجل قلبك فأنت على خير كبير وإذا وجل لذكر غيره فليس بينك وبين الشرك في الحقيقة مثقال ذرة إلا الخوف الغريزي فهو يصيب الأنبياء والمرسلين " فأوجس في نفسه خيفة موسى ".

2 - الكبائر وهي كل ما ورد في القرآن الكريم مشفوعا في فاصلة الآية بوعيد في الدنيا أو الآخرة أو بحد في الدنيا أو بفاصلة غضب أو لعن أو بفاصلة عزة وقوة أو بفاصلة علم وخبرة. لك أن تحصي نفسك ذلك بنفسك أن تقول سمعت من يقول كذا وكذا. فعلت هذا بنفسي وألفيت أنها زهاء التسعين ثلثاها تخص الدولة وحكامها والثلث الأخير يخص كل واحد منا تقريبا مع أختلاف درجات المسؤولية. الكبائر صنفان كبيران : جرائم في حق الله وهي جرائم الشرك فحسب أو جرائم في حق الإنسان وهي كل الكبائر الأخرى وجرائم أخرى في حق النفس حرمانا من الزكاة والطهر ولكنها محدودة العدد. من سجد لله وحده ووقي ظلم الناس كل الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فقد وقي الكبائر وظفر بالوعد الأعظم : إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم

أي حسنة أعظم سعرا في زماننا وأي سيئة أثقل وزرا :

1 - أكثر الحسنات اليوم أجرا بعد الجذع المشترك إيمانا وعبادة وخلقا هي المساهمة في توحيد صف الأمة مهما بدا ذلك بعيدا لأنك مسؤول عن العمل وليس عن النتيجة. كلام يبدو في ظاهر سهل ويسير ولكنه ثقيل في العمل وهو في الميزان أثقل.

2 - كسب العلوم والمعارف الدينية والكونية التي تؤهل صاحبها للإرتقاء إلى أفضل مقامين ينشدهما عليه الصلاة والسلام : العدل والراحلة. ومن جهة أخرى ليتأهل صاحبها لفتح مجالات للحوار مع الناس إبتغاء هدايتهم ودعوتهم.

3 - أكثر السيئات وزرا وسعرا يوم القيامة هي دون ريب وبعد الشرك بالله سبحانه هي العدوان على حقوق الإنسان ـ كل إنسان ما لم يكن محاربا ـ سواء كان عدوانا بدنيا أو معنويا أو ماليا أو دينيا.

الفصل الرابع عشر : الجهاد يسيل لعاب الشباب المسلم بمثل ما يسيل لعاب العدو

الجهاد ذروة سنام الإسلام

الإسلام مركب هندسي هو الجمال تنظيما والكمال ترتيبا والجلال هيبة. كيف لا ومنزله وصف نفسه بأنه جميل يحب الجمال. قال فيه نبيه عليه الصلاة والسلام أنه ذروة سنام الإسلام ولا يصل المرء إلى الذروة إلا بعد المرور بمراحل قبل ذلك. هو ذروة ووجه الشبه أن البعير يختزن قوته في ذروته فيصبر على الطعام والشراب أياما طويلة وأسابيع. هو ذروة ووجه الشبه النتوء البارز. هو ذروة لأنه باق بقاء الإسلام .إذ قال عليه الصلاة والسلام : الجهاد ماض إلى يوم القيامة

الجهاد والقتال والتمييز الضروري

المؤمن مجاهد أو لا يكون إذ خلقنا لغرض واحد لا ثاني له وهو غرض الإبتلاء والإبتلاء يحيل على الجهد وفي الجهد بعض العنت والشق . نظن أن الجهاد في سبيل الله بالنفس لا يكون إلا بالطريق التقليدية القديمة أي حضور رجل بسلاحه في ساحة وغى. هذا التصور الطفولي لا ينسجم مع الإسلام إذ أن الله سبحانه تعهد بإختبار كل مخلوق في الحياة هل يجاهد أم يقعد. الجهاد في سبيل الله بالنفس يعني كل مؤمن وكل مؤمنة وهو بذل الجهد البدني والنفسي لأجل إقامة الحد الذي يليه من الدين وبذلك يكون كل مؤمن مجاهدا في سبيل الله بنفسه ومثله كل مؤمنة أما حصر الجهاد في سبيل الله بالنفس في الصورة النمطية القديمة فذلك يعني أن الجهاد منسوخ وأن الأولين حباهم الله به وحرم الآخرين منه. مثل ذلك قوله : جاهد الكافرين والمنافقين .. هل جاهد عليه الصلاة والسلام المنافقين بنفسه أي ببدنه؟ طبعا لا. هل عصى ربه في هذا؟ طبعا لا. ما هو المخرج من هذه الورطة إذن؟ المخرج هو أن الجهاد بالنفس في سبيل الله ـ عدا الجهاد بالمال ـ هو بذل أي جهد بدني أو نفسي أو .فكري لأجل طاعة الله سبحانه وإقامة دينه بحسب ما تيسر للمرء بما هو مشروع ومناسب

مثله الخلط الشنيع الذي نأتيه بين الجهاد والقتال. ولو كانا شيئا واحدا لما إحتاج النظم القرآني إلى تسمية هذا جهادا والآخر قتالا. لا علاقة بين الأمرين أصلا ولست أقول أن القتال نوع من أنواع الجهاد. الجهاد وجبة يومية يحتسيها كل مؤمن وكل مؤمنة. أما القتال فلا يكون أوّلا إلا بعد قتل ولذلك سمي قتالا ولم يسم قتلا. ولا يكون ثانيا إلا مع عدو ولو كان مسلما إذ العداوة الكبرى في نظر الإسلام هي عداوة الحريات إذ بعداوة الحريات يقع العدوان على الدين بالضرورة. ولذلك قال سبحانه في الجهاد : والذين جاهدوا فينا .. أي جاهدوا أنفسهم. ولعل إبن القيم هو خير من قسم الجهاد فليراجع لمن شاء.

أصل الجهاد الثابت هو جهاد بالقرآن الكريم

لكل شيء أصل. أصل الجهاد هو قوله : وجاهدهم به جهادا كبيرا. أي جاهد يا محمد المشركين به أي بالقرآن الكريم وعندما تفعل ذلك يكون جهادك جهادا كبيرا. أي أن الجهاد لا يكون إلا جهادا فكريا معنويا ثقافيا مدنيا سلميا إذ لا يقول عاقل أن الجهاد بالقرآن الكريم هو جمع المصاحف وقذف الكفار بذلك أو سحرهم به. وأن أفضل عمل بعد الجذع العام المشترك بين المؤمنين هو الجهاد ـ وقد ورد هذا في الحديث الصحيح لمن يسأل عن أفضل العمل ـ وأن أفضل جهاد هو الجهاد الفكري الثقافي أي الجهاد بالكلمة التي لا تنضب صور الجهاد بها فنيا ومعرفيا وتنظيميا وسياسيا وأن ذلك الجهاد منضبط بالقرآن الكريم فهو أصله.

ضابطان آخران للجهاد : الإخلاص + الأحقية

مناط ذلك قوله في آخر الحج : وجاهدوا في الله حق جهاده. أي أن الجهاد ـ الذي هو وجبة المؤمن اليومية لا تنفك عنه إبتلاء ـ لا يكون إلا خالصا لله سبحانه وحده أو هو وثنية وصنمية وعبادة للذات أو تقديس لما لا يجب أن يقدس. كما لا يكون الجهاد الخالص نفسه إلا بحق أي من أهله وليس من الدخلاء عليه والمتطفلين وفي أهله أي المحاربين حربا مدنية. وسيأتي الكلام عن الحرب العسكرية. تحصل لدينا إذن أن للجهاد ضوابط ثلاثة حددها القرآن الكريم نفسه وهي :

ـ أن يكون الجهاد خالصا لله وحده.
ـ أن يكون بحق وليس بظلم فلا يجاهد إلا من حقه الجهاد ولا يجاهد إلا أهل الجهاد
ـ أن يكون بالقرآن الكريم أي بما حواه وهل حوى غير التصورات والمعالجات؟

ما محل السيف إذن والقوة العسكرية ؟

الحقيقة التي وقفت عليها بنفسي إحصاء هي أن محمدا عليه الصلاة والسلام وهو الموكل إليه تطبيق شريعة الجهاد لم يبدأ إنسيا واحدا بالقتال أبدا طرا مطلقا بل ظل طول حياته يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ويصبر على الظلم حتى إذا تمكن في المدينة لم يرد الصاع بمثله ولا بعشر معشار مثله بل ظل مرابطا في مدينته يستكشف ويستعلم ويستخبر بسراياه خشية أن يداهم غيلة فإذا هجم عليه المشركون في بدر دافع عن نفسه وفعل ذلك من بعد ذلك في كل الواقعات من أحد حتى الخندق ومن فتح مكة السلمي حتى حنين ولم يبدأ مشركا بقتال أبدا إلا مقاوما دون نفسه ودون من إستأمنوه ومثل ذلك مع الجبهة الإسرائيلية التي عقد معها جميعا دستور المدينة فما قاتلهم حتى خانوه غيلة في بني النضير ثم في بني قريظة وبينهما خانوه في حرمة إمرأة كشفوا عورتها وفعل الأمر نفسه مع الجبهة الرومية إذ ظل يراقب حدوده فإذا شعر بخيانة منهم سار إليهم إستباقا وما قاتل روميا إبتداء أبدا. بل ظل يلتزم السلم والأمن ويحاول أن يفكك الأحلاف بالمال ـ ثلث الميزانية مثلا لغطفان في الخندق ـ ويبعث بالسفراء محملين بالكتب المختومة لا يدعوهم سوى إلى حقه في بث دعوته بين شعوبهم سلميا فلا يكره أحدا على دينه ولا يحال دونه ودون كلمته وتلك شريعة بشرية معروفة لم يخترعها هو. كما إلتزم شرائع من قبله من مثل عدم قتل البرد أي الرسل إلخ .. ذلك أن الإسلام لا يحتاج لسيف ينشره أو لقوة تحمله عدا سيف الكلمة وقوة الحجة.

إلى جهاد العصر أيها الشباب

الجهاد فريضة كل مؤمن ومؤمنة ووجبته اليومية لا تنفك عنه فلا يكون المؤمن إلا مجاهدا. أما القتال ـ وليس القتل ـ فلا يضطر إليه إلا دفاعا عن نفسه أو أرضه ووطنه وقومه أو المستضعفين من غيره إن إستطاع. ثورة الإتصالات اليوم نسخت جهاد الطلب أو الفتح بالتعبير القديم وأبقت على جهاد المقاومة فهو لا ينسخ إذ المقاومة غريزة سبقت الإسلام نفسه.

جهاد العصر هو الجهاد بالكلمة وللكلمة ما لا يمكن حصره أبدا من الصور إذ هي عنوان كل جهد يباشر كل حقل وبكل وسيلة عدا وسيلة القوة المادية فهي الكتابة وهي الخطابة وهي التصوير وهي الفنون وهي التنظيمات والأحزاب والجمعيات والمنظمات وهي الترجمات وهي الثورات وهي الإعتصامات والمعارضات والمقاطعات والتكتلات والإضرابات. إذا كان هدف جهاد الفتح أو الطلب هو التعريف بالإسلام وتبليغه للناس فإن الكلمة اليوم هي فارس ذلك الجهاد وذلك هو معنى أنها نسخت جهاد الفتح بصورته التقليدية المعروفة أي تجييش الجيوش وتسييرها إلى المكان الفلاني.

الإعلامي اليوم فضائيا أو إلكترونيا هو المجاهد في سبيل الله بنفسه وهو أفضل جهاد.
المجاهد بماله لتكون الكلمة بكل صورها آلة الجهاد الحديثة هو المجاهد في سبيل الله.
السياسي الذي يجاهد لتحرير الأوطان أو الإنسان هو المجاهد في سبيل الله.
طالب العلم ـ أي علم ينفع البشرية ـ هو المجاهد في سبيل الله. ومثله باث العلم إختراعا وإكتشافا ومنظرا. بناء الأسر على قواعد صحيحة جهاد في سبيل الله في زمن تصدعت فيه الروابط الإجتماعية وغزينا فيه من لدن الزواج المثلي وشذوذات أخرى.

فلنكن في ساحة جهاد تضمن لنا الغلبة وليس حقل تجارب أو إختراق

من شروط القتال القديمة ألا يكون إلا من خلف أمير وهو كلام معقول ومقبول يعبر عن وحدة الصف إذ ليس كالفوضى عدوا للقتال. وضع الأمة اليوم بهستيرية التمزق التي تستفحل فيها ليس وضع قتال عدا في الأرض المحتلة وهو قتال مقاومة بل إن حكام الأمة اليوم هم أوّل من يتصدى للإسلام دحرا وتأخيرا ولذا تعفى الأمة بسبب إنعدام القيادة الواحدة من القتال إلا مقاومة وتظل تحبس نفسها وينذر شبابها أنفسهم على جهاد العصر أي في ساحة تضمن لنا الغلبة والتفوق أي جهاد الكلمة الذي خصه عليه الصلاة والسلام بالأفضلة المطلقة في قوله : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر. وما عداها من الساحات إنما تسيل لعاب العدو ليجرب فيها أسلحته أو ليخترق فيها الصفوف ويجندها لأغراضه وما تنظيم " داعش " إلا خير دليل فضلا على أن الغلبة هنا له هو عدلا من الله سبحانه لأن العدو يقاتل بأسباب القتال أي العلم العسكري والتقدم الجوي وله فينا ومنا عيون ظاهرة هي عيون الدولة وعيون أخرى الله يعلمها ولا نعلمها.

الفصل الخامس عشر : لا تغتالوا التجديد بإسم تحاشي البدعة

الذي يصخي بسمعه إلى كثير من الشباب المتدين الحديث وهو يملأ الدنيا صراخا حول البدعة يمتلأ روعه أن الدين ما حذر من شيء تحذيره من البدعة أو أن المسلمين اليوم غرقوا في البدعة غرقا ما بعده نجاة. ذلك شأن الأطفال عندما يقدمون على إجراء عمليات جراحية فلا يجدون من ينهاهم عن ذلك. حضور الخطاب المحذر من البدعة في الدين أقل من القليل والله. لا تظفر بآية واحدة ولا بسوى حديثين فحسب. الخطاب الديني لا يستخدم كلمة البدعة أصلا إلا قليلا جدا. هل تعرف لم؟ لأنه مهموم بدفع الناس إلى فريضة الإجتهاد وعزيمة التجديد عمارة للأرض ومراجعة للسالف ونظرا في الكون. أموت في اليوم مرات حسرة وأسى إذ ألفى الشباب المتدين حبيس البدعة يذب عنها بمثل ما لا يذب عن بدع أخرى سيأتي الحديث عنها بل يذب عنها ذب الراعي عن غنمه الذئب. أموت أسى إذ أجد المتدين سجين المربعات التي أهملها الخطاب الإسلامي تأخيرا. ومن أجلّ ما حفظت ممن تعلمت عنهم هذه القاعدة المنهاجية في التعامل مع الإسلام : قدّم ما قدّمه الإسلام وكبّر ما كبّره وعظّم ما عظّمه وأخّر ما أخّره الإسلام وصغّر ما صغّره وبذا يكون عقلك إسلاميا في تفكيره لأن الإسلام منهاج يهدي الطريق وشرعة تملأ المنهاج بالتفاصيل.

الخطاب النبوي عن البدعة :

1 - قال عليه الصلاة والسلام :" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ ". وفي رواية فهو ردّ عليه. وهو متفق عليه.

2 - كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر فيه ضعف سندي ولكن معناه صحيح :" أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة حتى لو تأمر عليكم عبد حبشي فإن من يعش منكم بعدي فسيرى إختلافا كبيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة". وجاء الحديث في إثر موعظة مؤثرة قال بعدها الصحابة : كأنها موعظة مودع فعظنا.

تحليل الخطاب النبوي في شأن البدعة :

1 - طالب العلم الراسخ يرد المصطلح النبوي إلى أمرين : أولهما المنبع العربي وثانيهما الإستخدام القرآني. القرآن الكريم يستخدم كلمة الأمر في الأعم الأغلب متحدثا عن الأمر العام أي الشأن العام أي الشأن السياسي بالتعبير المعاصر وذلك لأن الأمر في اللسان العربي هو الشيء الذي لعموم البلوى به ولعظمته يجتمع الناس حوله حوارا مؤتمرين لأخذ ما يناسبه من علاج. ألم يقل الشاعر وقد نعي إليه أبوه : اليوم خمر وغدا أمر؟ أي غدا أجتمع مع من يجتمع بهم في مثل هذا لنأتمر بأمر يناسب الموت. أما إطلاق الأمر على الأشياء الصغيرة والأمور الحقيرة فليس من رجحان العقل ولا تشبعا من القرآن ونظمه.

2 - سياق الحديث الثاني واضح جلي أنه عليه السلام كان يعظهم بلزوم الجماعة كعادته دوما خاصة أنه ربما شعر بدنو أجله ولذلك عندما طلبوا منه المزيد ركز على توجيهات وتعليمات تفيدهم عندما تحدث الفتنة الكبرى التي قال فيها ما قال وهو كثير نبوءة تحذيرية ولا يتصور إلا أحمق أنه قال ذلك فرحا جذلا بل قال ذلك وقلبه يقطر دما ويتقطع ألما. سياق البدعة إذ هو سياق سياسي وقد صدقته الأحداث كلها.

3 - لا ريب عندي أن البدعة البادعة التي كانت تشغل باله عليه الصلاة والسلام وظل يحذر منها في مواعظ مؤثرة مبكية هي بدعة إحداث أمر دخيل على أمرنا السياسي أي إحداث التوريث في تولي الحكم والتداول على السلطة وإزالة الأمر الذي جاء به القرآن الكريم نفسه في سورة الشورى إذ قال في الشأن السياسي :" وأمرهم شورى بينهم ". ألم يقل عليه الصلاة والسلام في شأن تلك البدعة حديثا آخر يدعم هذا :" لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة كلما إنتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها : أولها الحكم وآخرها الصلاة "؟.
ألا يعني ذلك أن البدعة العظمى التي كان يحذر منها لأنه رآها في الغيب الموحى إليه به إنما هي بدعة الإنقلاب على الخلافة الراشدة التي كانت راشدة لأنها تتبعت المنهاج القرآني في التداول على السلطة وفي قيادة الدولة وتنصيبها وجعلها في معالجة شؤون الناس وخدمتهم أي بعقد البيعة والتراضي والتشاور ثم بالحلم والرحمة والرأفة وتوفير الأمن والسلام وجمع الصف الواحد والإعتراف بحق التنوع حتى لو كان في مستوى الطرح الفكري الخوارجي كما فعل الإمام علي مع الخوارج وهم يكفرون مرتكب الكبيرة وقال سياسته التي غدت تعليما يتبع في معالجة المعارضة السلمية : لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولا نمنعهم الفيئ ولا مساجد المسلمين؟

4 - ورغم ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام وهو الرؤوف الرحيم بالناس لم يلجأ إلى أوصام الكفر والفسق إذ قصر كلامه على قوله : فهو رد أو رد عليه أي أن الأمر مردود عليه وعلى من جاء به وهو تهديد دون ريب ولكنه أدب النبوة. وفي الحديث الآخر قال : فإن كل بدعة ضلالة. أي ضلال سياسي لا يتعدى ضلاله إلى العقيدة وإلا كفر صاحبه. هي كبيرة سياسية دون ريب دون شك ولكن ربما تعتريها تقديرات سياسية تختلف فيها الأنظار كما هو الحال مع الحسن مثلا وهو يتنازل لمعاوية أو لهذا وهو يأخذ البيعة لإبنه يزيد وهو حي يرزق. لا تبرير للانقلاب على أمر الشورى ولكن لا ولوغ في أعراض الناس إذ قد يكونوا مجتهدين أي متأولين بالتعبير القديم وهو تعبير أوفى كما هو شأن الناس في الجمل وصفين.

5 - وما عدا حقل السياسة أي الأمر العام للناس فلا تجد أي خطاب نبوي يلبسه ثوب البدعة أبدا طرا مطلقا إذ أنه يعلمنا أن الأمر أهون من ذلك فقد يكون إختلافا فقهيا صغيرا أو كبيرا بما جد من بعد ذلك بآلاف الحالات بين الفقهاء والعلماء ولن يزال الأمر كذلك حتى تقوم الساعة. بل جدّ الأمر في حياته في صلاة العصر في الطريق إلى بني قريظة مثلا أو في الذين أشاروا بجهل على أميرهم بالغسل فمات أو في شأن الذين إختلفوا في قضاء الصلاة من بعد الظفر بالماء وغير ذلك مما جد في حياته ومن بعده بما لا يحصى.

بدعتان عظميان نخرتا الأمة وفريضة الوقت التصدي لهما :

1 - البدعة السياسية الأولى التي حذر منها عليه الصلاة والسلام والتي لأجلها هي بالذات أنزل سبحانه سورة مكية أسماها هو نفسه سبحانه

سورة الشورى وهي البدعة التي أتاها الأمويون إذ ألغوا أمر البيعة المتراضية المتشاورة المتكافلة وعدلوا إلى ضرب من ضروب الترويع بصور خفية وعلنية. تلك هي البدعة التي ظلت تصاحبنا حتى اليوم بل حتى ظلت أصلا من أصول فقهنا السياسي ووجدنا من ينظر لنا شرعنة وتقنينا بإسم شرعية المتغلب وأحقية السيف ومع إيصاد أبواب الإجتهاد وسيادة الإنحطاط ذهب في روع الناس أن ذلك هو الأصل أو أن الأمر لا حيله لنا فيه عدا الخنوع والخضوع والتسليم.

2 - البدعة الفكرية الثانية التي دخلت علينا حديثا وهي بدعة العلمنة أي فصل الدين عن السياسة وعن الحياة العامة بصفة عامة مالا وإقتصادا وإجتماعا وإدارة وعلاقات خارجية وغير ذلك. وهذه البدعة نفسها أشار إليها عليه الصلاة ولاسلام في أحاديث أخرى صحيحة منها قوله عليه الصلاة والسلام : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل الجاهلين وإنتحال المبطلين . ولا شك أن المبطلين المنتحلين هنا هم أهل العلمانية في عصرنا أي الذين لا ينكرون الإسلام جملة بل يقطعون أوصاله إيمانا ببعضه وكفرا ببعضه الآخر.

والحقيقة المرة أن الإستبداد ـ الظلم والبغي بالتعبير القرآني ـ ما وجد له طريقا سالكا إلا في إثر إنتصاب البدعتين الأوليين أي بدعة التوريث والتزييف بدل الإحتكام إلى صناديق الإقتراع وبدعة العلمانية فهما قنطرة القهر وبالإستبداد إكتملت حلقة الإنحطاط فهي فكرية بالعلمانية وهي سياسية بالقهر والحيف.

<u>لا بد من ميزان يجمع بين البدعة والتجديد معا :</u>

تلك هي موافقات الشريعة إذ ما تنهى عن شيء حتى يكون لها عنه بديل. الذي يدرس الشريعة يجدها تحرض على الإجتهاد والتجديد حتى قال بعضهم بحق : خطأ المجتهد أحب إلى الله من إصابة المقلد. ذلك أن المقلد لا يخطئ بل يصيب دوما لأنه لا يعمل والذي لا يعمل لا يخطئ بالطبع. فلا تذهبوا بعيدا في التبديع وإذا ذهبتم بعيدا فيه فليكن في مظانه الحقيقية مقاومة لأكبر بدعتين حذر منهما عليه الصلاة والسلام أي البدعة السياسية توريثا وقهرا والبدعة العلمانية تفكيرا.